

في العصور الوسطى

تأليف : كارل ستيفنسن

ترجمة : دكتور محمد فتحي الشاعر

يطلب من دار المعارف

الفصـــل الأول

أصـــول النظام الاقطاعى

مصطلح اقطاع :

يبدو أن الكلمة الانجليزية الاقطـاع Feudalism ، وكـذلك الكلمة المرادفة لها فى اللغة الفرنسية لم يكن لهما وجـــود من ناحية الاستعمال حتى أواخر القرن الثامن عشر ـ بعد أن وجهت ثورة ١٧٨٩م الاهتمام العلمى الى بعض الخصائص البارزة لنظام الحكم فى العهد السابق على قيام الثورة · ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة « اقطاع » و « النظام الاقطاعى » وما شابه ذلك جزءا من المفردات التى استخدمها المؤرخ العادى ،لأن مثل تلك التعبيرات كانت متداولة عندما يريد الاشارة الى العلاقات المعقدة فى العصور المنصرمة · وعلى أية حال فقـد قام الكتاب فى العصر الحديث باللجوء الى استعمال كلمة اقطاع والبعض الآخر يقول النظام الاقطاعى · وظل الوصف غامضا بالنسبة لكثير من الكتاب الى حد بعيد ـ وقد أدى ذلك الغموض الى الكشف عن أطوار الاقطاع فى تاريخ كثير من الشعوب المختلفة بداية من قدماء المصريين حتى الوصول الى الشعب اليابانى فى القرن الماضى ·

على أن المقارنة الاجتماعية لهذا النوع ليس لها مكان فى الوصف التالى مهما كانت مفيدة · والهـــدف الحالى هو تفسير المؤسسات الاجتماعية التى جعلت رجال العصـــور الوسطى يبتكرون مصـطلح « اقطاعى » بقدر ما تسمح المصادر بذلك · وعلى الرغم من أننا سوف نتوصل الى استنتاجات معينة فى آخر الأمر بالنسـبة للاقطاع وأهميته التاريخية ، فمن المفيد لنا تجنب التعميم التمهيدى ، حتى لو تركت مسألة استخدام المصطلحات الفنية للدراسة والبحث فى الوقت الملائم · وبدون محاولة تقرير ما هو الاقطاعى وما هو غير الاقطاعى سـلفا ، نستطيع على الفور أن نبدأ بحثنا العام عن العادات والتقاليد من الناحية الواقعية فى العصور الوسطى الباكرة ·

الجماعة المسلحة :

وفى القرن الثانى بعد الميلاد كتب المؤرخ الرومانى تاكيتوس Tacitus مقالا تاريخيا أطلق عليه الجرمان Germania والذى ظل مشهورا جدا . وأوضح تاكيتوس أن الجرمان برغم انقسامهم الى قبائل عديدة فانهم يشكلون شعبا واحدا يتميز بسمات مشتركة فى الحياة . والجرمانى التقليدى هو محارب . ففى الوقت الذى ترك فيه تدبير شئون بيته وفلاحة أراضيه للعبيد والنساء ، قام بتخصيص كل جهده للحرب ، أو حياة التسلح دون طائل ، والاسراف فى معاقرة الخمر ، ولعب الميسر فى حالة عدم وجود أسباب للحرب ، والأعمال الاستفزازية والمثيرة . وكان حكام الجرمان من القادة العسكرين. وكانت مجالسهم التشريعية اجتماعات عسكرية . وباستثناء انشغالهم بالاستعداد للحرب ، فانهم لا يزاولون أى عمل سواء أكان خاصا أم عاما . بيد أنه ليس من عادتهم السماح لأى فرد بحمل السلاح بدون الحصول على موافقة رسمية من القبيلة . ويتسلم الفتى ، فى وجود أفراد القبيلة مجتمعين ، ترسا ورمحا من والده ، أو من أحد أقاربه ، أو من أحد كبار رجال القبيلة ، وهذه الهدية تماثل الثوب الرجالى toga virilis عند الرومان ، وهذا التقليد يجعل من الفتى مواطنا فى جماعة كبيرة أكثر من مجرد كونه عضوا فى أسرة . ويحصل الفتى على هذا الاعتراف بسبب انتمائه الى طبقة النبلاء أو شهرة أسلافه وأجداده . حتى وان كان الأمر كذلك فمن المرجح أنه كان يتلقى تدريبا على استخدام الأسلحة مع رفاقه comites تحت زعامة أحد رؤساء القبائل princeps المشهورين . وهنا تقل قيمة الأصل والمولد عن الشجاعة الحربية ، لأن كل عضو ينافس الأعضاء الآخرين فى الجماعة ، ويناضل كل رئيس قبيلة من أجل التفوق على منافسيه من خلال ولاء أتباعه ومن الخزى والعار على رئيس القبيلة الا يبدى شجاعة أو أن يكون أتباعه أقل منه شجاعة فى ساحة الوغى . واذا ما قدر لشخص أن يبقى على قيد الحياة بعد موت القائد فى المعركة فيكون هذا الشخص قد حكم على نفسه بالخزى والعار المستمر مدى الحياة اذ كان من الواجب الدفاع عن القائد ومساندته وتقديم كل عون له ، وتمجيده من خلال تقديم الأعمال التى

تعبر عن الشجاعة ، وكل تلك الأعمال كانت بمثابة التزام مقدس من قبل كل الرفقاء تجاه قائدهم . وفى مقابل ذلك كانوا يتوقعون الحصول على التجهيزات الحربية ، والطعام ونصيب من الغنائم التى يحصلون عليها مهما كانت تلك الغنائم .

وتكمن أهمية هذه الكتابة التاريخية المفعمة بالحيوية التى قدمها تاكيتوس فى حقيقة أنه فى مدى خمسمائة عام كانت الشعوب الجرمانية قد اجتاحت الأقاليم الغربية فى الامبراطورية الرومانية وشيدوا هناك سلسلة من الممالك التى قدر لها أن تهيمن على مسرح الحوادث التاريخية الأوربية . ورغم أن معظم الجرمان كانوا قد اختلطوا بالسكان الأصليين واقتسبوا كثيرا من نظمهم الاجتماعية فانهم ظلوا غير متمدينين بصفة أساسية . واحتفظت الكثير من عاداتهم المتوارثة بنشاطها القديم وبخاصة التى تجدد نمط حياة الطبقة المحاربة . وفى هـذا المجال فان تاريخ الجرمان تناولته كتابات عديدة فى أوائل العصور الوسطى . فعلى سبيل المثال فان المنظمة الحربية التى أطلق عليها تاكيتوس Comitatus قد ورد ذكرها مرارا وتكرارا فى القرون التى تلت عهد تاكيتوس - بين القوط the Goths والفرنجة the Franks ، واللومبارديين the Lombards ، والأنجلو - ساكسون the Anglo-Saxons ، وحتى الفايكنج فى اسكنديناوا the Viking of Scandinavia . ويظهر المحارب الشجاع الذى يقاتل ويموت بجانب رئيسه - فى الأساطير والملاحم الأنجلو سكسونية التى تعبر عن مواقف البطولة للسادة الاقطاعيين . ومهما يكن من أمر فان العلاقات الشخصية التى كانت موجودة بصفة مستمرة بين الغزاة الجرمان فى الأقاليم الرومانية كانت جديرة بالاحترام من كلا الجانبين . وعندما يكون المحارب الحر والمعروف بحمله أسلحة كانت ذاتها علامة مميزة له ، قد أصبح تابعا لرئيس جماعة أو شيخ قبيلة ، فانه كان بفعل ذلك عن طيب خاطر مع توقعه المحافظة على مرتبته ومنزلته اللائقة . ولا يتعرض لأى شىء يقلل من مكانته أو منزلته . وكان فى الامكان انهاء رباط العلاقات بالموافقة المتبادلة بكل سهولة . على أن الشاب الذى ينضم الى جماعة من أجل المغامرة والخبرة يعيش على أمل أنه سيجد فى المستقبل جماعة من

الاتباع الذين يتبعونه شخصيا ، ذلك لأن أى انسان لديه قدر كاف من الثروة والشهرة يتقرب اليه الرفاق والزملاء .

الاطـــراء والمديح :

لا يمكن أن تنشأ مثل تلك العلاقة بين الرومان فى أواخر عهـــد امبراطوريتهم . اذ كانت مهنة الحرب فى نظـــرهم لا تحظى ســوى بالقليل من الاحترام وبعيدة عن كونها مرادفة للكياسة والرقة والدماثة . ونظرا لأن معظم المواطنين الرومان كانوا قد تجنبوا منـــذ أمد بعيد الانخراط فى الخدمة العسكرية فان الفرق العسكرية تكونت من سكان مناطق الحدود الرومانية ومن الذين كانوا من أصل برابرة بصفة أساسية. وكانت قوات الحرس الملكى التى سارعت شـــخصيات كبيرة للعيش فى كنفها تتكون من قوات مرتزقة من أصول متواضعة ، اذا لم تكن تتكون من أصول تنتمى الى العبيد من الناحية الواقعية . ووفقا للعرف الذى استقر لفترة طويلة من الوقت كان فى استطاعة الرجل الحر الرومانى الذى لا يملك شيئا أن يكون تابعا لأى رجل رومانى ثرى الذى يقبل أن يكون نصيرا وسيدا وراعيا له . ومع ذلك كان التابع الاقطاعى خاضعا لسيده الاقطاعى من الناحية الاقتصادية بصــفة أساسـية ، ففى مقابل حصوله على المنح المالية ، والطعام ، والملابس ، كان يشارك فى ظهور حاشية سيده الاقطاعى . فى الاحتفالات العامة بمظهر القوة والكثرة . على أن التبعية الاقطاعية تلك clientage والتى لا يترتب عليها أى خدمة عسكرية ولا تتضمن أى شىء سوى المساواة الاجتماعية كانت مختلفة عن الجماعة المسلحة الالمانية اختلافا تاما . وظل هذا الاختلاف قائما حتى بعد أن انتشر نمط السلوك الرومانى بين الغزاة من الفرنجة فى بـــلاد الغـــال Gaul . وفى عهـــد المـــلوك الميروفنجين Merovingian Kings (ملوك الأسرة الفرنجية الأولى التى حكمت بلاد الغال من حوالى ٥٠٠ - ٧٥١م) ، وغالبا ما نقرأ عن فقـــراء وضعوا أنفسهم تحت تصرف احدى الشخصيات القوية ، لكى يتمكنوا من الحصول على ما يمكنهم من العيش ، وكان الشخص الذى يضع نفسه تحت تصرف شخص قوى على ذلك النحو يصبح الرجل التابع والخادم the man (باللغة اللاتينية hommo ، وباللغة الفرنسية homme) ، لسـيد

اقطاعى lord (باللغة اللاتينية dominus ، وباللغـة الفرنسية Seigneur) . غير أن كل ما تقدم من تلك التعبيرات لا تشير الى وجود علاقة عسكرية . وعلى امتداد العصور الوسطى اشـتمل أتباع السـيد الاقطاعى على أقنانه ومزارعيه من كافة الدرجات بالاضافة الى الخدام المسـلحين .

الحيازة المؤقتة والاقطاعية :

وفى ذلك الحين عمل الملوك البرابرة فى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية على نشر نمط للتعامل انتشارا على أوسع نطاق . وكان هذا النمط المقصود هو منح قطعة من الأرض على سبيل الحيازة المؤقتة يتم منحها فى المناسبة السارة التى يمر بها المانح الاقطاعى والتى عرفت باسـم precarium or precaria . ووفقا للقانون الرومانى كان من الممكن انهاء تلك الحيازة المؤقتة فى أى وقت . وفيما بعد ، وبخاصة فى عصر المملكة الفرنجية the Frankish Kingdom ، وصار شـغل أرض لعدة سنوات أو مدى الحياة مقابل أجرة أو أداء خدمات مشروطة محددة أمرا قانونيا . على أن مصطلح الحيازة المؤقتة precaria يشير الى أن الأرض قد تم الحصول عليها من خلال توسلات متسلمها ، بيد أن هذه المنحة يمكن تسميتها اقطاعة benefice أيضا لأنها عطـاء beneficium من جانب المعطى . على أن الحقيقة المهمة هى أن الاقطاعة النمطية كانت بلدة أو عـزبة زراعية - أى مجمـوعة من الأراضى المعدة للزراعة، وتتبعها المبانى ، ووسائل الزراعة ، والحيوانات الاليفة ، والذين يفلحون التربة من الأحرار واقنان . وكنتيجة للتدهور الاقتصادى الذى ظل مستمرا لمدة خمسمائة عام على الأقل لم تعد التجارة مصدرا مهما للثروة فى كل أنحاء معظم الغـرب الأوربى ، وسيطرت الزراعة على الدولة والمجتمع . ومال السكان الى الانقسام الى طبقتين بشكل واضح : الطبقة الارستقراطية من أصـحاب الاقطاعات الزراعية وطبقة المزارعين التابعين لتلك الطبقة اقتصاديا . وانتمى الحائز على اى اقطاعة الى الطبقة الأولى .

التبعية الاقطاعية فى العصر الكارولنجى :

فى القرن الثامن الميلادى ، وعندما استولى رؤســاء القصر من الشعب الأوسترازى Austrasian Mayors على القصر أولا ثم على السلطة فى مملكة الفرنجة Frankish Kingdom ثانيا ، رسخت تلك العادات والتقاليد الرومانية أو الجرمانية وأصبحت وكأنها قوانين معترف بها من الجميع . واجه كل من شارل مارتل Charles Martel (شارل المطرقة) ، وببيين Pepin ، وشــارلمان Charlemagne ، الحاجة الى الدفاع عن امبراطورية مترامية الأطراف واداراتها ، بعــد أن قاموا باجراء تطويرات وجدوا أنها مفيدة . وكان فى تشريعاتهم الرسمية أن التبعية الاقطاعية ظهرت لأول مرة على أنها نمط سلوكى فى العلاقات له شهرته . ونظرا لأن الاسم وكل ما يشير اليه مايزال ضمن القضايا التى تثير الجدل والخلاف فان على المرء الا يكون حرفيا ومتزمتا عنــد دراسته لهــذا الموضوع . كما أن التفسير التالى هو مجرد ما يمكن أن يبدو متطابقا مع ما ورد فى المصادر ، على الأقل من وجهة نظر مؤلف هذا الكتيب .

ونجد فى أوائل العصور الوسطى كلمات عديدة للتعبير عن غلام "boy" ، والتى كانت تستخدم للدلالة على اما عبد slave ، أو خادم حــر a free servant ، أو تابع مسلح a military retrainer .

ومهما يكن سبب التغير فى المصطلحات الغنية فان المصــادر الفرنجية مملوءة بالاشارات عن الاتباع الاقطاعيين vassals . وحظى أتباع الملك بتكريم خاص طوال عهد الامبراطورية الكارولنجية . وكثيرا ما كانت الحكومة تكلفهم بالقيام بالمهام الخاصة بالبعثات . والأهم من ذلك بكثير أنهم كونوا الصفوة فى الجيش ، وكانوا يشاركون فى القتال على أساس أنهم ضمن الفرسان الذين يحملون أسلحة ثقيلة ، وغالبا ما كانوا يقودون الفرق الحربية المكونة من أتباعهم الاقطاعيين فى المعــركة . ولكى يتمكنوا من تحمل نفقات تلك الالتزامات كانوا يحصــلون على الهبات فى شكل اقطاعات ـ وهى عزب زراعية من بين الأراضى المملوكة للقصر الملكى ، أو من بين أراضى الكنيسة التى صادرتها الدولة ، والتى وضعت الدولة يدها عليها مقابل أداء الخــدمات المطلوبة . أما الاتباع

الاقطاعيين . الذين لا يتبعون الملك مباشرة من الناحية الاقطاعية ، فقد كان يبدو انهم من المحاربين بصفة دائمة برغم أنهم غالبا ما كانوا فقراء واقل تمتعا بالامتيازات ، وكانت مرتبتهم أعلى من المزارعين العاديين .

الخلاصـــــة :

وبعد دراسة العادات والتقاليـد المتعـــددة فى العصر الكارولنجى the Carolingian period فنكون بالضرورة درسنا باهتمام التطور للأنماط السلوكية والاجتماعية التى تحمل اسم اقطاعية . وقبل أن نتقدم الى مدى أبعد فمن المستحسن أن نلخص مسألة ذلك التطور من خلال سلسلة من الأسئلة والأجوبة المتفرقة .

التبعية الاقطاعية :

(١) ماهو أصل التبعية الاقطاعية ؟ منذ عهـــد الكارولنجيين ، وبعد عهدهم كانت التبعية الاقطاعية علاقة جديرة بالاحترام بين أعضاء الطبقة المقاتلة ويبدو أنه من المتعـــذر تماما ارجاع تلك العـــلاقة الى الرومان . وبرغم كل الكلمات اللاتينية التى استخدمها الفرنجة فى بلاد الغال ، فان التبعية الاقطاعية فى العصور الوسطى ظلت عادة تخص البرابرة بصفة أساسية ، ومشـــابهة للوصف الذى قـــدمه تاكيتوس عن الجماعة المسلحة the comitatus الى حـــد كبير . ومنـــذ البداية اشتركت الشعوب الألمانية المتعددة فى تلك العادة ولا سيما الأنجلو - ساكسون the Anglo-Saxons ، ونتجت ميزة التبعية الاقطاعية الفرنجية من السياســـة الحكومية للملوك من الأسرة الكارولنجية من الناحيـــة الاجماليـــة .

(٢) ماهى السياسة الكارولنجية بخصـــوص التبعية الاقطاعية ؟

كانت المملكة الميروفنجية the Merovingian kingdom صـــورة زائفة للحكم الرومانى على أكثر الأحوال . وبنهاية القـــرن السابع الميلادى كانت تلك المملـــكة قـــد تفســـخت تماما . وكانت المملكة الكارولنجية Carolingian kingdom قوة جديدة ظهرت بفضل عبقرية كل من شارل مارتل ، وببين ، وشـــارلمان . ولكى يحافظ هؤلاء الحكام على

سلطتهم والعمل على تقويتها ، فانهم اعتمـــدوا على اخلاص أتباعهم الشخصيين الذين أطلق عليهم فيما بعد الأتباع الذين بحوزتهم اقطاعات أكثر من اعتمادهم على سلطتهم العليا النظرية . وهكذا شغل الوظائف الرئيسية فى الجيش ، والمناصـــب الأكثر أهمية فى الكنائس والدولة أيضا ، الأتباع الاقطاعيون الذين تسـلموا اقطاعاتهم من الملك . وفى آخر الأمر رسخت القاعدة فى ضرورة أن يكون كل موظف كبيـــر تابعا اقطاعيا مباشرا للسلطة الملكية . على أن السياسة الكارولنجية فشلت فشلا ذريعا ، كما سنرى فى الصفحات التالية ، ومع ذلك فقد وطدت الحوادث السابقة المماثلة القانونية والتى لوحظت لكثير من القرون .

الاقطـــاعة :

(٣) ما هو أصل الاقطاعة ؟ ظـــل تعبير beneficium فى العصور الفرنجية Frankish times غامضا وغير مفهوم . ويقال أن شخصيات عديدة كانت فى حوزتها اقطاعات benefices فى مقابل العديد من أنواع مختلفة من الخدمات أو الأجور . ونظرا لأن الاقطاعة التى كانت فى حيازة تابع اقطاعى شريطة تقديم الخدمة العسـكرية ، ففى استطاعتنا تسميتها اقطاعة حربية . وفى بداية الأمر لم يكن هناك كلمة فنية لاتينية للتعبير عن اقطاعة a benefice ، برغم أنها كانت معروفة فى اللغة العامية الرومانية a feosor a fief . وذلك الاسم تم استخدامه فى اللغة اللاتينية فى شكل feodum or feudum ، وفى النهاية بدأ استعمال هذا الاسم رسميا وقدم أصل النعت المعروف "feudal" (وباللغة الفرنسية féodal) . وســـواء أكان الاقطاع الحربى موجودا قبل القرن الثامن الميلادى أم لا فهذا الأمر مازال موضوع جدل ونقاش . على أية حال ان الكارولنجيين هم الذين أوجدوا هذا النمط من الحيازة الاقطاعية وجعلوه أمرا شائعا فى العـــرف الفرنجى وقام هينرتش برونر Heinrich Brunner بتقديم أفضل تفسير لسياستهم . ووفقا لرأى ذلك العالم الشهير كان الجيش الفرنجى القديم يتكون من الرجـــالة infantry الى حد كبير — الذين كانوا من عامة الأحرار من الشعب والذين قبلوا أن يدبروا أسلحتهم بأنفسهم ويعملون دون أجر .

وفى القرن الثامن الميـــلادى حاول الكارولنجيون the Carolongians بكل اهتمام أن يضاعفوا قوة فرسانهم المدربين ، بعد أن أثبتت التجربة عدم مقدرة النظام التقليدى . ولكى يضـعوا ذلك موضع التنفيذ قاموا بتطوير ما هو معروف لدينا باسم الحيـــازة الاقطاعية عن طريق ربط التبعية الاقطاعية بالحيازة الاقطاعية .

(٤) ماهى مقومات أو صفات أو طبيعة الاقطاعة ؟ يمكننا القول أن الاقطاعة فى ماهيتها هى اقطاعة عسكرية كانت مكافأة خاصة تقدم للتابع الاقطاعى مقابل أداء خـدمات خاصة . واذا ما استطاع الحكام استئجار قوات فرسان نقدا فان اللجوء الى توزيع الحيازات الاقطاعية على الأتباع يصبح غير ضرورى ، ذلك لأن الاقطاعة الكارولنجية كانت وحدة دخل زراعى فى المقام الأول . وليس من الدقة وصف الاقطاعة بأنها قطعة أرض . فما قيمة الأطيان الجرداء بالنسبة للمقاتل المحترف الذى يعتبر العمل فى الزراعة يحط من قدر المـــرء ومكانته ؟ وكانت الاقطاعة مملوكة لأحد أصحاب الثروات وتشتمل على مزارع منظمة ، يعمل بها الفلاحون الذين ولدوا وعاشوا فى تلك المزارع ويقومون بالأعمال الزراعية بها وفقا لطريقة عمل محددة مألوفة لهم . وليس ذلك هو كل شىء . وكانت حيـــازة الاقطاعة تعنى التمتع بامتيـــاز مهم عـــرفه الكارولنجيون على أنه اعفاء واستثناء . وكان التابع الاقطاعى للملك له حق اقامة العدل ، وجمع الغرامات ، والرســوم المحلية ، وحشـد المقاتلين ، وأن يجبر المزارعين على تادية أعمال صـيانة الطـــرق ، والجسور ، والتحصينات ، كل ذلك داخل نطاق الأرض الاقطاعية التى فى حوزته . ولذلك كان هذا الاقطاعى موظفا عاما الى حد ما ، وعضوا فى السلطة الحاكمة التى كانت طبقتها العليا تشـــتمل على الأدواق ، والنبلاء ، والكونتات ، وكبـــار رجال الكنيســـة . ولـــا قام الأتباع الاقطاعيون للتاج الملكى بتسليم أجـــزاء من امتيازاتهم الى أتباع لهم اقطاعيين Subvassals لذلك فان الحيازة الاقطاعية أصبح من المتعذر فصلها عن ممارسة السلطة السياسية .

(٥) ما هى أصول النظام الاقطاعى ؟ بهـــذا الخصوص ليس أفضـــل من أن نســـتشهد بنص التعليق الذى قـــدمه فيرديناند لوت

Ferdinand Lot : لقد أصبح استخدام لفظ « النظام الاقطاعى feudalism مفضلا على لفظ « التبعية الاقطاعية vassalage ومقبولا فى الاستعمال ، ومن هذه الناحية التاريخية لم يكن هناك أتباع اقطاعيين دون وجود اقطاعات » . ويمكن التعبير عن النظام الاقطاعى بأسلوب آخر ، فى أننا نشير على ما يرام الى الارتباط الخاص للتبعية الاقطاعية بالحيازة الاقطاعية التى جرى عليها التطور فى الامبراطورية الكارولنجية ومن ثم انتشر فى النواحى الأخرى من الامبراطورية . وبقدر ما كان هذا الارتباط يحدث لصالح الأهداف المتعلقة بالشئون الحكومية فان النظام الاقطاعى كان سياسيا بصفة جوهرية . ويجب الا يكون هناك اعتقاد بأنه كان مرحلة ضرورية فى التاريخ الاقتصادى . وعلى الرغم من أن أنماط السلوك الاقطاعى تقتضى ضمنا وجود ترتيبات معينة ، فان تلك الترتيبات نفسها لم تكن اقطاعية. وتمكن نظام المزارع المستأجر من الانتشار لعدة قرون فى بلد محدد ، كما حدث فى بريطانيا بدون أن يؤدى الى وجود نظام اقطاعى فى أى ولاية محلية كما لا يصح أن نصف النظام الاقطاعى كنوع من القوى الفوضوية لأن ظهوره تزامن مع انحلال الامبراطورية الكارولنجية . ولعدة أسباب لابد أن تؤخذ بعين الاعتبار ، فان التعبير الاكثر دقة هو أن النظام الاقطاعى أصبح العنصر الأساسى لنظام سياسى جديد — وهو النظام الذى ظهر عندما انهار نظام أقدم .

الفصــــل الثــانى

مبادىء الحيــازة الاقطاعية

التطورات السياسية فى القرنين التاسع والعاشر :

تظهر بجلاء حقيقة واحدة هى أن الأحوال الاقتصادية التى انتشرت فى كل أنحاء غرب أوربا جعلت من المستحيل على دولة صغيرة البقاء وذلك كله نظرا لتميز القرنين التاســـع والعاشر بوجـــود تاريخ كله اضطرابات وعدم استقرار . واتضح أن الامبراطورية الكارولنجية مترامية الأطراف للحد الذى يمنع الدفاع عنها بفعالية وبخاصة عندما تعرضت لهجمات الفايكنج Vikings ، والعرب Saracens ، والهنغار Hungarians . وفشـــل التقسيم الذى حدث ٨٤٣م فى ايجاد حالة من الاستقرار وتحسن الأوضاع بصفة دائمة . وكانت مملكة لوثر Lothair الرئيسية أول مملكة انقسمت الى ثلاثة أقسام ، وبرغم استمرار الحقوق الملكية العديدة أنقسمت الى أجزاء أخرى كثيرة . والى الشرق تحولت مملكة لويس الألمانى الى مجموعة من الدوقيات التى تتمتع بالحـــكم الذاتى ، والتى استمرت تتحـــدى طموحات الأباطرة من السكســـون والفرنجة . وفى الغــــرب أصبحت مملكة شــــارل الأصلع Charles the Bald مجرد ذكرى وتراث بعد أن انتقلت السلطة الحقيقية الى الحكام الحقيقيين من العلمانيين ورجال الكنيسة . ولم يحدث اعتلاء أسرة كابية the Capetian عرش البلاد أى تغير جوهرى فى البناء السياسى . وحاول هوج كابيـــه Hugh Capet ومن خلفـــه شئون الامارة التى ورثوها فحسب – منطقة نوستريه Neustria ، والتى صغرت مساحتها فى ذلك الحين حتى صارت قاصرة على جزيرة فرنسا the Ile de France . وانقسمت الأجـــزاء الباقيـــة من مملكتهم من الناحية النظرية الى عدد كبير من الوحدات المتشـــابهة ، ومن أكثرها أهميـــة تولوز Toulouse وجاسكونى Gascony ، وأكوتيين Aquitaine ، وبـــريتانى Brittany ، وأنجـــو Anjou

بلـــــوا Blois ، شامبين Champagne ، بورجوندى Burgundy وفـــلاندر Flanders ، ونورماندى Normandy ، وبعض تلك الامارات كان منذ عهد الكارولنجيين ، والبض الآخر كان ظهوره فيما بعد . ومهما كان أصلهم القانونى فان القوة التى لعبت دورا كبيرا فى تطورهم ، واستمرت القوة فى التحكم فى مصائرهم . وكانت أكثر تلك الوحدات نجاحا هى التى احتفظ حكامهما بأفضـــل الجيوش وبأقوى الأجهزة الادارية .

وفى مثل تلك البيئة استمرت أنماط التعامل الاقطاعى والتحكم . وللسبب نفسه انتشرت فى آخر الأمر فى كل أنحاء أوربا ، ومن الجزائر البريطانية the British Islers الى بلاد الشام . ولذلك فمن الأهمية التاريخية الكشف عن أنماط التعامل الاقطاعى فى أقاليم متعددة وعن كيفية تحولها على ضوء التطورات السياسية فى عصر تال . ومع ذلك فقبل أن ندرس أحوال دولة معينة ، لابد لنا من الحصـــول على فهم واضح للعرف الاقطاعى بصفة خاصــــة . وعلى الرغم من كل التفاوت المحلى ، فان الحصول على هـــذا الادراك والفهم ليس صـعبا . واذا ما تغاضينا عن التسويات القانونية والامتيازات فى القـــرون الأخيرة للاقطاع ، ففى امكاننا أن ندرك عن طيب خاطر أساس وقوام العــرف الاقطاعى الشائع ــ وهى مجموعة من المبادىء التى ترجع الى العصر الكارولنجى ، والتى نعتبرها الأساس .

الطبيعة الذاتية للتبعية الاقطاعية :

وكما علمنا فقد ظهر النظام الاقطاعى لأول مرة بناء على الارتباط بين حيازة اقطاعة والتبعية الاقطاعية . وكانت التبعية الاقطاعية هى العنصر الأساسى . وكثيرا ما تشـــير مجموعة الشرائع الكارولنجية الى الأتباع الذين لا يحوزون اقطاعات وهم الذين عاشـوا فى ديار سادتهم الاقطاعيين ، وعلى الرغم من أن هؤلاء الأتباع أصبحوا مسألة نادرة فى العصر التالى فانه كان من الممكن دائما أن يصبح الانســـان تابعا دون حصوله على اقطاعة a fief . ومن ناحية أخرى فان الاقطاعة تكون موجودة من الناحية القانونية عندما تكون فى حوزة تابع اقطاعى .

وهذه الحقيقة التى كثيرا ما تم اغفالها هى بحاجة الى بضع كلمات من الشرح والتفسير . ويجب أن نذكر أنه ليست كل قطعة أرض ممنوحة مدى الحياة benefice هى قطعة من الأرض تعرف باسم اقطاعة a fief ، كما أنه ليس كل مستأجر حر a free tenant تابيع اقطاعى Vassal . والشخص الذى يؤدى خدمات زراعية مهما كان أسلافه كان ينظر اليه على أنه مـــزارع a peasant وليس بتابع اقطاعى a vassal لأنه لا ينتمى الى الطبقة العسكرية . وكما سوف يظهر بوضوح أكثر فان اقطاعة التابع الاقطاعى الذى مات لا يمكن أن تنتقل الى وريثه الا بعد أن يحصل ذلك الوريث على الوضع القانونى للتابع الاقطاعى . وعلى الرغم من امكانية اعلان انتقال الاقطاعات بالوراثة ، فان التبعية الاقطاعية ظلت علاقة شـــخصية تماما ، ولم تخضع للارث على الاطلاق .

البيعة : حفلة يعلن فيها المرء أنه من أتباع أمير اقطاعى :

ولكى يصبح المرء تابعا اقطاعيا عليه أن يظهر فى حضرة ســيده الاقطاعى المقبل ويقدم اليـــه الالتزام الفنى الذى يطلق عليه البيعـــة homage (ويطلق عليها باللغة اللاتينية homogium) وكـــذلك الاخـــلاص والولاء fealty ، (ويطلق عليـــه باللغـــة اللاتينية fidelitas) . وعلى التابع الاقطاعى الركوع أمام سيده الاقطاعى وأن يضع يديه بين يدى سيده الاقطاعى ويعلن تبعيته له وتعهده الكامل بالاخلاص والولاء له ضد أى أعداء . وبالمثل يعلن السيد الاقطاعى قبول بيعة تابعه الاقطاعى ويرفعه من وضع الركوع حتى يقف أمامه منتصب القامة ، وكقاعدة يقبل السيد الاقطاعى تابعه الاقطاعى . ثم يقوم التابع الاقطاعى بالقسم المهيب أمام الأناجيل الأربعة القانونية أو آثار مقدسة للتاكيد على وعده بالولاء والاخلاص لسيده الاقطاعى . وبالطبع لم يكن هناك على الاطلاق تناسبا كاملا فى المعاملة ، كما أنه جرى استحداث كثير من الصيغ الشفهية المختلفة فى مرحلة تطور الحيازة الاقطاعية . بيد أن اجراءات البيعة ظلت كما هى فى كل مكان وكانت العادة الدائمة ان تتم البيعة بعد أداء قسم ويمين الولاء والاخلاص وليس بعده .

وعلى ضوء ما تقدم يجب أن نتذكر أننا ندرس حالتين لاحتفال واحد وليس لاحتفالين · وعلى الأكثر فان قســم الولاء يعطى الوازع المسيحى للتعهد الضمنى فى البيعة لأنه لا يمكــن أن يصبح المرء تابعا اقطاعيا a vassal دون أن يعد بالاخلاص لسيده الاقطاعى his lord ولدينا دليلا قاطعا على أن البيعة كانت معروفة ومشــهورة فى العرف الفرنجى منذ أوائل القرن الثامن الميــلادى · ونظن أن لب الاحتفال وجوهره كان وثنيا وبربريا ، وفى الأصل كان ذلك شكلا للاعتراف يقوم به جماعة الرفاق لشيخهم ، ولابد أن السلطة الكنسية هى التى أضافت قسم الولاء والاخلاص · وعلى أية حال فان السلطة الكنسية لم تتمكن بنفسها من ايجــاد رباط التبعيــة الاقطاعيــة · وابان العصر الكارولنجى the Carolingian age وكما حدث فى وقت تال لذلك العصر ، كان فى الامكان دعوة الرعايا الاحرار لكى يقســموا يمين الولاء والاخلاص للحاكم دون أدنى تفكير فى كونهم قد أصبحوا أتباعا له · ولذلك لابد أن يكون استنتاجنا هو أن الاخلاص والولاء لا يدل ضمنا على حدوث البيعة ، غير أن تلك البيعة تشير بكل تأكيد على قيام التبعية وكذلك الاخلاص والولاء · والواقع يمكن لنا أن نتبع المثال الذى وضعته الكثير من الوثائق العديدة ، والتى تتحدث عن البيعة وحــدها ، وتفترض نتيجتها المطردة ·

الواجبات الاقطاعية المتبادلة بين الاقطاعيين وأتباعهم :

وتدعم المناقشة السابقة حقيقة أنه برغم أن السيد الاقطاعى لا يقسم يمين الولاء والاخلاص فانه يلزم نفسه بقبول بيعة التابع الاقطاعى الى أبعد مدى · فمجموعة الشرائع الفرنجية التى تشير فقط الى واجبات التابع الاقطاعى فى المحافظة على الاخلاص لسيده الاقطاعى بطريقة غير مباشرة ، حددت أيضــا بكل دقة الأساليب التى يمكن أن تعرض هذا التابع للمعاملة القاسية من قبل سيده الاقطاعى · ووفقا لما ورد فى مرسوم للامبراطور شارلمان ، فان من حق التابع الاقطاعى ترك سيده لأى سبب من الأسباب التالية : اذا ما تآمر السيد الاقطاعى على حياة تابعه ، أو اذا ما ارتكب السيد الاقطاعى جريمة الزنا مع ـ زوجة تابعه ، أو اذا ما هاجم السيد الاقطاعى تابعه بسيف مســلول ، أو اذا تقاعس

السيد الاقطاعى عن حماية تابعه رغم مقدرته على حمايته · وبعد ذلك بقرنين من الزمان قرر فولبرت أسقف شارتر Fulbert bishop of Chartres المبدأ نفسه فى خطاب مشـــهور الى دون أكويتين Aquitaine .
ويعلن فولبرت أن المرء الذى يقسم يمين الولاء لســـيده الاقطاعى يجب عليه أن يقدم المساعدة والمشورة بكل اخلاص لكى يكون سيده الاقطاعى مصانا فى شخصه ، وفى حقوقه ، وفى ممتلكاته ، وذلك مقابل حصول هذا التابع على اقطاعته · وبالمثل على السيد الاقطاعى واجب متبادل نحو تابعه المخلص · واذا ما تقاعس أحدهما عن أداء الواجب تجـــاه الطرف الآخر وكان فى امكانه تأديته فمن العـــــدل اعتبار ذلك خيانة وغدر · وبالطبع كان الأسلوب هو أسلوب أستاذ جامعى فى العصـــور الوسطى مع وجود ميل للدراسة التقليدية · وقام بتاليف نوع من التمرين الفلسفى بهدف شرح وتفســـير التزامات التابع الاقطاعى · ومـــع ذلك حظيت معلوماته بكل ترحاب لأن الوثائق القانونية والرسمية للقرنين الحادى عشر والثانى عشر تصف الأمور الفنية بحيازة اقطاعة أكثر من الأهداف التقليدية للتبعية الاقطاعية ·

واظهر الشعر باللهجة العامية فى فرنسا فى العصور الوسطى مدى تأثير تلك الأهداف فى المجتمع الاقطاعى هناك · والى حد ما ينعكس تأثير أناشيد البطولة the Chansons de geste على الثقة المتبادلة بين الاقطاعى وتابعه أو على فشل أحدهما فى تحقيق ما يجب عليه عمله لصالح الآخر · ومن ثم فان أغنية رولان Roland ، أقدم وأروع الملامح الفرنسية ذكرت تعرض مؤخرة جيش شارلمان لهجـــوم المسلمين بسبب خيانة جانلو Ganlon · وفيها رولان البطل الذى يمثل تجســـيدا للشجاعة والولاء والاخلاص · وقام رولان بحث الفرسان الفرنسيين على مهاجمة العدو دون أن يضعوا فى اعتبارهم تفوق العدو عليهم · وأبلغ صديقه أوليفر Oliver ، أنه يجب عليهم نصب أعينهم خوض المعركة حتى الموت دفاعا عن امبراطوريتهم · ويجب على التابع الاقطاعى أن يتقبل الصعاب الجسام ، وأن يتحمل شدة الحـــرارة والبرودة ، وأن يضحى بجسده من أجل سيده الاقطاعى · والواقع أن التبعية الاقطاعية هى الفكرة الرئيسية للقصيدة كلها · وورد ذكر التبعية الاقطاعية مرة

بعد أخرى وكان يشير بصفة دائمة الى أن الفارس المخلص والصادق فى الولاء يجب عليه أن يتمسك بالنظم الأصلية للفروسية . ومن ذا الذى يطلع على تلك التقاليد الجرمانية التى وصفها تاكيتوس Tacitus

واذا ما قمنا بغض الطرف للحظة من الوقت عن كل الاستثناءات الممكنة فيمكننا القول أن التابع الاقطاعى كان رجلا يتصف بالشهامة والمروءة ومحاربا على نحو متميز ، وباذلا كل جهده لمساندة سيده الاقطاعى فى ساحة الوغى وفى المجالات المشرفة الأخرى . وكان ذلك التزاما شخصيا كان من الممكن أن تجرى عليه الحيازة الاقطاعية تعديلات غير أنه من المستحيل اغفاله أو طرحه جانبا . وبحلول القرن الحادى عشر كان التابع الاقطاعى ، فى العادة ، يعيش وسط عزبته الاقطاعيه وكان يعنى ذلك أن تبعيته لسيده الاقطاعى مقيدة بدواع محددة - وبفضل مركزه المميز ، فان خدماته لسيده ستكون لها قيمة . كما أن منح الاقطاعى اقطاعه لتابعه لا يعفى ذلك الاقطاعى من المسئولية الشخصيه تجاه تابعه الاقطاعى . وكان الاقطاعى الخائن أو التابع له الخائن يطلق عليهما لفظ مجرم felon ، وظلت تلك الخيانة felony معروفة جيدا فى أنظمة القانون الاقطاعى . ومع ذلك فقبل متابعة هذا الموضوع يجب أن نعرف شيئا أكثر عن مكاسب وحيازة الاقطاعات fiefs .

وراثة الاقطاعات :

وفى فرنسا فى العصور الوسطى اختلفت الاقطاعة اختلافا واضحا عن قطعة الأرض المملوكة ملكية خاصة وصاحب الملكية الخاصة تؤول اليه تلك الأرض عن طريق الارث ، أو الهبة أو الشراء . وعلى العكس تماما . فان الذى يحصل على اقطاعة له حق الانتفاع usu fruct - وهو حق تملك وفقا لشروط محددة . ولنأخذ حالة بسيطة ، وذلك بافتراض أن أيه A أعطى أرض اكس X التى فى حوزته الى تابعه ا E مقابل خدمات محددة بالتفصيل تم الاتفاق عليها فيما بينهما . وعندما يصير ب B خلفا لـ آيه A يصبح ا E تابعة الاقطاعى بالمثل عن طريق تقديم فروض الولاء الاقطاعى اليه .

ولم يكن ا F راغبا فى أن ينهى تبعيته الاقطاعية حتى لو كان ذلك ممكنا فى الزمن القديم ذلك لأنه فى حالة انتهاء تلك العلاقة عليه أن يسلم اقطاعته هذا فى الوقت الذى يرغب فيه أن يحظى فيه أ سنه اف F بالاقطاعة من يدى اكس X وبالشروط نفسها. وهذا الأمر يرضى ب B الذى من مصلحته أن تظل العلاقة الاقطاعية مستمرة مع تابع اقطاعى وصادق الولاء. غير أنه عند موت ايه E فان اف F لا يستطيع الحصول على اقطاعة والده من الناحية القانونية الا بعد أن يقوم بدوره بتقديم فروض الولاء الاقطاعى الى ب B.

وعلى ذلك يتقلد هذا التابع الاقطاعى منصبه : حيث يسلمه سيده الاقطاعى عصا التبعية الاقطاعية ، وحفنة من التربة الزراعية a turf ومدية ، أو أى شىء رمزى آخر يشير الى حيازته الاقطاعية للاقطاعة.

ومن الناحية الواقعية نعلم أنه حتى قبل انتهاء القـــرن التاسع الميلادى . كان من المألوف انتقال الاقطـــاعات من الوالد الى الابن ، حتى أنه فى مدى حوالى قرن آخر صارت الاقطاعة توصف بانتظام على أنها وراثية . ومع ذلك فوفقا للأسباب التى ورد ذكرها اتضح أن تلك الوراثة لم تكن سوى مجرد تجديد للاتفاق التعاقدى الاقطاعى ، الذى كان على كل من الطرفين أن يعلن موافقته الشـــخصية عليه . وعندما يموت تابع اقطاعى تعود اقطاعته الى السيد الاقطاعى ، والواقع أن تلك الاقطاعة تزول عنها صفة الاقطاعة تماما الى أن يتم وضـــعها فى حيازة تابع اقطاعى آخر . وفى حالة اذا لم يكن للتابع الاقطاعى وريثا، فان عملية عودة الاقطاعة الى مالكها أطلق عليها الاستيراث escheat وكان من حق السيد الاقطاعى أن يحتفظ لنفسه بالاقطاعة التى كانت فى حوزة تابعه المتوفى أو أن يقطعها لتابع اقطاعى جـــديد أيا كان هـــذا الشخص وذلك وفقا لرغبة هذا السيد الاقطاعى اذ انها أرضـــه وملكه وحده . أما اذا مات التابع وكان له وريث فكان السيد الاقطاعى ملزما من الناحية القانونية بالموافقة على قبول هـــذا الوريث كتابع اقطاعى خلفا للاقطاعى المتوفى . وقد جرت العادة فى مثل تلك الحالة أن يدفع الوريث مبلغا للسيد الاقطاعى أطلق عليه البدل relief .

حق الابن الأكبر فى الارث كله :

كان حق الابن الأكبر فى انتقال الاقطاعة كلها اليـــه أمرا مثيرا للدهشة ، وفقا لما جرى عليه العرف . ولم يكن ذلك النمط من الوراثة معروفا عند الرومان أو الجرمان ، وانما استمر الوضع عند الرومان والجرمان على اقتسام الأبناء ممتلكات وأراضى المالك الميت التى كانت كلها ملكية خاصة به دون غيره allodial property . ويبدو أن حقيقة عدم امكانية تقسيم الاقطاعة من الناحية القانونية أثبت أنها كانت تعتبر وظيفة عامة أكثر من مجرد كونها قطعة أرض . ومن الواضح أن تلك النظرة كانت حقيقيه بالنسبة لدوقية a duchy أو كونتية county ان السماح بتقسيم الاقطاعة الى أجزاء غير محددة سوف يلغى قيمتها ـ ففى الحقيقة سوف يتفاوض مع الهدف الحقيقى من وجود تلك الاقطاعة ومن ناحية أخرى فان من يتسـلم الاقطـاعة من الممكن له أن يسمح بتخصيص أجزاء منها الى أتباعه الاقطاعيين ، وفى هذه الحالة يقع على عاتقه تحمل مسئولية اهمالهم ، ومن ثم صارت اعطاء الابن البكر وحده حق وراثة الحيازة الاقطاعية primogeniture هى الاجراء العملى من أجل استمرارية الحيازة الاقطاعية وانتشر هذا الأمر فى كل أنحاء أوربا فى العصور الوسطى . على أن التعديل الوحيـد للقاعدة لصالح الأبناء الصغار كانت العادة التى أطلق عليها المشاركة parage ووفقا لتلك العادة كان من الممكن تقسيم الاقطاعة بين عدد من الورثة فى الحيازة الاقطاعية اذا ما قدم أحدهم فروض الولاء الاقطاعى عنهم جميعا وبذلك تظل الاقطاعة محتفظة بكيانها دون ضـياع أى جزء من أراضـيها .

الوصـاية والزواج :

ولكى نقدم موضـوع الوراثة الاقطاعية فمن الضرورىأن نعيـد التأكيد على حقيقة أن التبعية الاقطاعية كانت شخصية على الدوام . وهناك حقيقة تتعلق بهذا الأمر ولها نتائج مهمـة ـ وهى أن التبعية الاقطاعية كانت قاصرة على المقاتلين الى حد بعيد . وفى حالة وفاة تابع اقطاعى وترك وريثا فى سن الطفـولة ففى العادة كان للسـيد الاقطاعى حق ممارسة الوصاية على ذلك الطفل . ونعنى بذلك أنه يتولى

الاشراف على الاقطاعة وينعم بريعها ويعول الوريث حتى يصل الى سن الرشد . وبعد أن يتم رفع الفتى الى رتبة فارس واعــلان بلوغه سن الرشد يؤدى فروض الولاء الاقطاعى لسيده ويتســلم منه الاقطاعة فى حفل خاص ومن الناحية المنطقية عالجت هذه الطريقة مشكلة وجــود وريث اقطاعة وهو فى سن ما قبل الرشد . ولكن اذا ما افترضـنا أن حائز الاقطاعة له ابنة واحدة واذا كانت الفتاة لا يمكن أن تكون تابعة اقطاعية فكيف يمكن الاعتراف بها كوريثة لاقطاعة والدها ؟ وبالطبع فان الاجابة بالزواج : ففى استطاعة أى زوج أن يقــدم فروض الولاء الاقطاعى ويحصل على الحيازة القانونية للاقطاعة . وكان مثل هــذا الزواج يتطلب موافقة السيد الاقطاعى حتى ابان حياة والد الفتاة . واذا ما كان التابع الاقطاعى متوفيا فيقوم الســيد الاقطاعى - باعتبــاره وصيا - بتولى أمر العناية التامة ، وفى غالب الأحوال يزوج الفتاة الى الفارس الذى يقدم عروضا أكثر من غيره . والواقع أن أقارب الوريث الصبى او الوريثة القاصرة غالبا ما اعترضوا على دعاوى السيد اقطاعى، وفى بعض الأحوال كان مضطرا للاعتراف بأحدهم كوصى على الوريث او الوريثة - شريطة أن يظل هذا الوصى تابعا اقطاعيا لهذا السيد اقطاعى طوال فترة سن ما قبل الرشد بالنسبة للوريث أو الوريثة .

الخــدمة العسـكرية :

وعلى ذلك فمن خلال سلسلة النظم القانونية تم تنظيم انتقال أى اقطاعة من شخص بالغ سن الرشد الى آخر وقد أصبح مطلوبا من حائز الاقطاعة أن يؤدى خدمة عسكرية للسيد الاقطاعى . وعلى الرغم من أن السجلات المفصلة للخدمة العسكرية تعود الى أواخر العصور الوسطى ، فاننا على ثقة من أن المبادىء ترجــع الى ماقبل ذلك التاريخ بكثير . ومنذ القرن التاسع الميلادى على الأقل تضمنت التبعية الاقطاعية الالتزام الشخصى للقتال لصالح السيد الاقطاعى ، كأحد الخيالة الثقيلى العدة او كفارس . وبالاضافة الى ذلك كان متوقعا من التابع الاقطاعى للملك ان يقدم جماعة من الخيالة المســلحين من أتباعه الاقطاعيين وانطبق الشرط نفسه على معظم الرجال التابعين اقطاعيا لأى دوق duke او كونت count أو أى شخصية أخرى كبيرة . وبهذه الطريقة تكون

جيش كل أمير اقطاعى على نحو مألوف • ومن الواضح أن حجم القوة العسكرية لكل تابع عسكرى ومدة الخدمة العسكرية لم تكن من الأمور المحددة بالضبط مقدما • ولكن مثل هذا التحديد قد أصبح عاديا - فى الامارات والدويلات الاكثر تنظيما ، وبخاصة تلك التى يحكمها النورمانديون the Normans . ووفقا لخطة قصد منها الوصول الى الأفضل كان التابع الاقطاعى يأخذ معه عددا كاف من الفرسان الى ميدان القتال بهدف انجاز كل ما هو مطلوب منه • غير أنه كان ملزما بتقديم الواجبات الاقطاعية على نفقته الخاصة لمدة تزيد عن أربعين يوما مرة واحدة فى السنة •

الاقطاع من الباطن :

ومن أجل ايضاح عمل الترتيبات الاقطاعية ففى استطاعتنا أن أن نأخذ المثال التالى برغم أنه يجب أن نذكر بأنه كان نظاما عالميا دقيقا • فبعد أن فتح وليم William انجلترا أعطى أيه A تابعة الاقطاعى خمس وعشرين مزرعة مقابل اعداد عشرة فرسان • ثم من حق ايه A اختيار احدى الاجراءات : فقد يلجأ الى الأساليب الطبيعية وذلك بالاحتفاظ بكل المزارع الخمس والعشرين على شكل ملكية خاصة demesine ، أو قد يمنح جزءا من اقطاعاته الى مقطع ثانوى subinfeudate لتغطية نفقاته الخاصة • وفى هذه الحالة فانه سوف يأخذ من كل مزرعة أى شىء يتم انتاجه من خلال عمل وجهد المزارعين المرتبطين بالأرض وعندما يطلب منه المشاركة فى الجيش الملكى ، عليه أن يقنع تسعة فرسان آخرين لمرافقته • وقد يكون الفرسان التسعة يعيشون فى دار الاقطاعى وعلى نفقته الخاصة أو ربما يقوم الاقطاعى باستئجار هؤلاء الفرسان التسعة وذلك وفقا للعرف الاجتماعى منذ القدم • ولكن اذا ما افترضنا أنه وجد صعوبة فى الاحتفاظ بهؤلاء الرجال تحت سقف داره وأنه يعوزه المال لدفع الأجور فانه يقوم باختيار خطة بديلة • ويقوم هذا الاقطاعى بمنح أحد أقاربه (ب B) حق الانتفاع باقطاعه a fief ، تتكون من مزارع مقابل أن يتعهد (ب B) بالانفاق على أربعة فرسان وتقديمهم وقت الحاجة • ويمنح لكل واحد خمسة من

المغامرين الذين لا يملكون أيضا مزرعة خصبة على أن يوافقوا على أن يصبحوا أتباعه الاقطاعيين ونفترض أن أسماءهم (س G) ، (G G) وا E ، واف F ، وج G) . وفى ذلك الحين كان أيه A يقوم بالوفاء بالالتزامات المطلوبة منـــه مقابل الانتفاع بالاقطاعة التى معه . واستجابة لأوامر الملك فسوف يذهب (أيه A) بنفسه بالاضافة أتباعه الاقطاعيين الستة (أيه A) بنفسه بالاضـــافة الى أتبــاعه الاقطاعيين الستة (ب B ، س) ، د C) ، وايه E ، واف F ، وج (D)) وثلاثة فرسان اضافيين يقدمهم التابع الاقطاعى (ب B) . ويجب الاشارة الى أن (أيه A) سيظل محتفظا باثنى عشر مزرعة فى أراضيه الزراعية لسد نفقاته الشخصية ونفقات أسرته . ويتمتع (ب B)) بما يتمتـــع به أيه A)) وذلك من رعاية مصالحه الشخصية . ويعيش كل من (س (D) ، د D) ، وايه F ، واف E ، وج G) على ما تنتجه مزارعهم الخاصة يخدمون (أيه A) شخصيا . وليس من المهم عدد مراحل الاقطاع من الباطن اذ ان كل شىء ربما كان وفقـــا للنظـام الزراعى الموجــود من قبــل .

المعـــونة والضـيافة :

وكانت تلك النفقات الباهظة نتيجة للخدمة العسكرية من هـــذا النوع واضحة من حقيقة أنها تتضمن الحصـــول على الرجال المدربين والخيول الجيدة ، والمعدات الباهظة التكاليف والخدم العـــديدين ، والطعام الذى يكفى امداد كل الجند طوال الحملة الحـربية . وكانت مسئولية التابع الاقطاعى قاصرة على الخدمة العسكرية . وفى مناسبات معينة كان مطلوبا من التابع الاقطاعى أن يدفع لسيده مبلغا من المال يطلق عليه المعونة aid . وقام النورمان بنقل العـــــرف السائد فى الشمال الفرنسى الى انجلترا والذى اشتمل على المناسبات التالية : عند ترقية الابن الأكبر للسيد الاقطاعى الى مرتبة فارس ، وعند زواج البنت الكبرى للسيد الاقطاعى ، وعند دفع فدية السيد الاقطاعى عند وقوعه فى الأسر . ومع ذلك ففى كثير من الأقاليم كان من الممكن جمع المعونة

بالقوة عند ترقية ابن الاقطاعى الى مرتبة فارس أو عند زواج أيا من أبناء أو بنات الاقطاعى ، وأحيانا أخرى عند المشاركة فى حملة صليبية أيضا ، أو عند ذهاب السيد الاقطاعى لمقابلة الملك فى قصره ، أو بعض الأعمال الأخرى الاستثنائية . وبالاضـافة الى ذلك فان على التابع الاقطاعى أن يقدم كل ما يؤكد على حسن الضيافة عندما يزور سـيده الاقطاعى . ونعنى بذلك أن على التابع استضافة سيده الاقطاعى دون مقابل كلما زاره . ونظرا لأن كل اقطاعى شهير كان يتنقل باستمرار فى صحبة جيش صغير من الفرسان الاتباع فان التابع المقتـدر لم يكن فى استطاعته أن يكون مضيفا كريما فوق طاقته . ونتيجة لذلك فان التزام التابع المقطع غالبا ما أصبح فى هذا المجال محددا بكل دقة ، وأحيانا تم استبدال تلك الضيافة بدفع مبلغ من المال .

الولاء التام للقصر الاقطاعى :

وأخيرا كان كل تابع اقطاعى مسئولا عن تقديم خدمة مهمة كان يطلق عليها الولاء التام للقصر الاقطاعى . وعندما يطلب السيد الاقطاعى من تابعه المقطع الذهاب لمقابلته كان عليه أن يذهب بنفسه وعلى نفقته الشخصية . واختلفت أسباب أداء الخدمات الاقطاعية مثلما تعـددت معانى كلمة بلاط Court . ومن الممـكن أن تكون المناسـبة تتعلق باحتفال رسمى الى حد كبير ، كما يحـدث فى حالة الابتهاج ، أو الاحتفال بمناسبة زواج . وربما تشاور السيد الاقطاعى التشاور مع رجاله بشأن حرب أو معاهدة . وكثيرا ما طالب السـيد الاقطاعى أتباعه أن يوافقوا على بعض الاجراءات الادارية أو المشاركة فى محاكمة . وعلى سبيل المثال اذا ما احتاج سيد اقطاعى الى خدمة عسـكرية أو خدمة اقتصادية بالاضافة الى ما كان قد دفعه أتباعه فان سبيله الوحيد كان مطالبتهم بمنحة اختيارية . وليس من حق السيد الاقطاعى أن يفرض على أتباعه ضرائبا أو رسوما بطريقة عشوائية ، لأن سلطته فى تلك الأمور حددها عقد اقطاعى . وليس من حقه أيضا أن يدعى لنفسه سلطات تشريعية . وكان العرف السائد هو القانون الشفهى فى المجتمع الريفى . ولم يكن من عمل السيد الاقطاعى تغيير العرف السائد الشفهى أو حتى تقديم تعريف محدد لذلك العرف وانما كان ذلك عمل حاشـية السـيد

الاقطاعى . ان الاتباع الاقطاعيين أنفسهم هم الذين أعلنوا العرف السائد الشفهى الذى يتخذون منه أساسـا للتعايش ، وحينما يرتكب أحدهم مخالفة لذلك القانون الشفهى السائد فان عليه أن يخضع للحكم الذى يصدر ضده بمعرفة النبلاء ونعنى بذلك زملاءه من الاتباع الاقطاعيين .

العدل الاقطاعى وحق السيادة الاقطاعية :

وعلى ذلك نواجه موضوع العدالة الاقطاعية وكل ما يتعلق بكثير من المشاكل . ان عبارة العدالة الاقطاعية ذاتها غالبـا ما كانت سببا للاختلاف . فهل نحن نقصد بالعدالة الاقطاعية كل الحقوق التشريعية التى يتمتع بها سيد اقطاعى كجزء من اقطاعته أو الحقوق التشريعية التى مارسها على أولئك الذين يحتفظون باقطاعات تابعة له ؟ ان كلا من الاستعمالين يمكن الدفاع عنه بالحجة ، ولكن لكى نتجنب الغموض والالتباس فى امكاننا اختيار التعبير الأخير ونستعمل الصفة « متعلق بالسلطة الاقطاعية seignorial على العدل الذى تتم اقامته على كل من ليس من الاتباع الاقطاعيين وعلى الأتباع الاقطاعيين أنفسـهم . وعندئذ يمكن فهم الحق الاقطاعى على أنه مجرد مظهر واحد من السلطة الاقطاعية ويساعدنا هنا الفهم على تفسير تطور كلييهما . وقد ورد بكل وضوح فى مجموعة شرائع شارلمان Charlemagne أن الاتباع الاقطاعيين كانوا خاضعين للسلطان القضائى للمحاكم العـامة مهما كان سـادتهم الاقطاعيين . وعلى ذلك فمن المعتقد حاليا وبصـفة عامة أن السيد الاقطاعى حصل على الحق فى اقامة العدالة من خلال اكتسابه للاقطاعة وليس من خلال سيطرته الشخصية على أتباعه . ونظرا للمبررات السالفة الذكر فان الاقطاعة حققت له سلطة سياسـية لأنها تألفت من وحـدة اقليمية حصينة . وبمعنى آخر ، فقد بدأت سلطة الحكومة الاقطاعية باعتبارها بتفويض من السلطة الملكية ثم احتفظت بصفتها المميزة حتى بعد انتشار نظام الحيازة الاقطاعية على أوسع نطاق .

وعلى الرغم من أن تنوع الاقطاعات فى القرن الحادى عشر مثيرة للحيرة والارتباك من أول نظرة ، فانها تشابه بعضها بعضا فى كونها مجموعات متكاملة فى الادارة القضائية والعسكرية والمالية الى حد ما .

وكان فى استطاعة الفارس العادى ممارسة الحقوق البسيطة المتعلقة بالمحاكم الاقطاعية . ومن ناحية أخرى فان السيد الاقطاعى الذى يتمتع بشىء من القوة له سلطة على عدد كبير من الناس بما فيهم المستأجرين الاقطاعيين بالاضافة الى المزارعين السذج من الأحرار والعبيد . وعندما قرر سيد اقطاعى جمع اعانة مالية فانه كان يطلب تحصيل ضريبة من غير النبلاء من السكان اذ أن أتباعه الاقطاعيين من حقهم عند اجبارهم على دفع أموال النبلاء ما لم تكن تلك الأموال مربوطة بمناسبة جمع الاتاوة التى يتم جمعها منهم من الناحية القانونية لصالح ذلك السيد الاقطاعى . ومن أجل الدفاع أيضا عن الأراضى التابعة له حرص السيد الاقطاعى على مطالبة أتباعه الاقطاعيين بتأدية ما عليهم من واجبات تجاه الاقطاعات التى بأيديهم ، وفى الوقت نفسه كان على عامة الناس من سكان الريف حفر الخنادق ، واصلاح الاستحكامات والحصون وعربات نقل المؤن والامدادات العسكرية والمواد الغذائية أو المشاركة فى القتال كرجالة مستخدمين الأسلحة البسيطة . ان ما يمكن أن نطلق عليه العدل الاجتماعى كان صورة مختلفة لما يعود بالفائدة على الطبقة العسكرية . ومن نظام الابتزاز القضائى الذى يشكل عبئا باهظا على المزارعين الذين لا حول لهم ولا قوة فان التابع الاقطاعى كان معفيا من الضرائب لأن قانونه كان يصدر عن محكمة اقطاعية تكونت من أتباعه الاقطاعيين.

المحاكمات الاقطاعيــة :

وهنا لابد من التغاضى عن موضوع القانون الاقطاعى الشديد التعقيد ، لولا الاشارة العابرة عن سمتين موجزتين : وهما المحاكمة بالمعركة والادانة بالجريمة . وفى أية حالة مهمه مثلما على سبيل المثال ادعاء ينطوى على منازعات أو اتهام فى جريمة قتل وليس من الممكن تبريره ـ تترك المحكمة الاقطاعية القضية حتى يمكن الفصل فيها عن طريق النزاع القضائى بين المبادىء أو بمعرفة المحاربين القانونيين المعينين . ثم قام الاثنان بالنضال وهما فى نظام فروسى كامل وان على المنهزم أن يعانى من العقوبات التى يفرضها القانون فى حالة استمراره على قيد الحياة . وبصفة عامة فان أى عمل غير مفيد للسيد الاقطاعى يمكن أن يطلق عليه لفظ شرير **felonious** ، كما أن الجريمة **felony**

كانت رفض التابع الاقطاعى أداء واجباته بما ينم على عـــدم الولاء ٠ وعلى سبيل المثال اذا تغيب التابع الاقطاعى عن جيش سيده الاقطاعى وتجاهل عن عمد أوامر المثول أمام محكمة سيده الاقطاعى فان لسيده الاقطاعى حق مصادرة الاقطاعة التى بيد هذا التابع باعتباره مجرما فى حق سيده ٠ بيد أنه فى امكان التابع الاقطاعى القـــوى الرد بالتحدى العرفى لمثل هذه المصادرة النظرية ـ وذلك بالتخلى عن الولاء الاقطاعى لسيده على أساس أن الأخير كان قد سحب ثقته منه ٠

الانماط الثانوية للحيازة الاقطاعية :

عالجت الدراسة السالفة الذكر الشكل العـــام للحيازة الاقطاعية فقط ٠ وفى ظل هذا النظام حققت الاقطاعات للسيد الاقطاعى دخولا مادية وغيـــر مادية وهى : (١) الوفاء بالتزامات التبعيـة الاقطاعية fealty والولاء للسيد الاقطاعى homage (٢) الخـــدمات المتعلقة بالفروسية (٣) الاتاوات الاقطاعية التى يدفعها الأتباع للســيد الاقطاعى ٠ (٤) حق الضيافة الذى يفرض تقـــديم المـــأوى والطعام والشراب للسيد الاقطاعى ومن معه من حاشية (٥) المكاسب الناجمة عن تحقيق العدالة وذلك بالزام التابع الاقطاعى برفع الدعاوى أمام محكمة سيده الاقطاعى (٦) ما يطلق عليه اسم الحـــوادث الاقطاعية العارضة التى تشمل تقديم الاعانات السريعة والنجدات الحربية العاجلة للســيد الاقطاعى ، وحق السيد الاقطاعى فى الوصـــاية فى حالة وفاة التابع وتركه وريث له دون سن الرشد ، وحق السيد الاقطاعى فى الاستيراث فى حالة عدم وجود وريث لتابعه الاقطاعى ، وحق السيد الاقطاعى فى مصادرة الاقطاعة ٠ بيد أن الأنماط الأخـــرى للحيـــازة الاقطاعية كانت عامة وشائعة ٠ فمنذ التاريخ الباكر للنظام الاقطاعى كان حرس القلعة يتحمل مسئولية فريدة لاقطاعات معينة ٠ فبـــدلا من تقـــديم فرسان بالطريقة المألوفة ، كان حرس القلعة يرسل فردا الى قلعة معينة لمدة محددة فى كل عام ، حتى تظل الحراسة موجودة بصفة دائمة بتدبير منهم ٠ وعندما تطلبت العقود الاقطاعية خدمات أخرى بخلاف الخدمات التى يؤديها الفرسان ، وهى عبارة عن مجموعة منوعة من الالتزامات الاقطاعية عرفها القانون الانجليزى بالخدمة الاقطاعية serjeanty .

وهكذا يسلم السيد الاقطاعى اقطاعة الى تابعه بهـدف تزويده بقوات اضافية ، وخيول ، وأسلحة أو أشياء نافعة أخرى ، وقد يتسلم أفراد من طبقة الأمراء اقطاعات مقابل أداء واجباتهم المقررة عليهم ٠ وأخيرا فمن خلال اقامة حيازة اقطاعية قائمة على الصـدقات الاختيارية تستطيع الكنيسة الحصول على اقطاعة فى مقابل تقديم الصلوات فقط ٠ وعلى أية حال كانت تلك الحيازة الاقطاعية مجرد تخيل قانونى وكانت امتيازا عاما للكنائس ٠

التبعية الاقطاعية الكهنوتية والحيازة الاقطاعية :

ولهذا الخصوص فهناك مسألة وثيقة الصلة قد تبدو أمام القارىء وهى عن كيفية التبعية الاقطاعية منذ وقت مبكر ، وكيفية قيام الكثير من الكهنة بتحمل أعباء العلاقة الحربية وهم الذين قـد حـرم عليهم المشاركة فى القتال او سفك الدماء من الناحية الشرعية ٠ والواقع أن الاجابة كانت بسيطة تماما ٠ ولقد تعرض هـذا الحظر للاهمال طوال القرنين التاسع والعاشر للميلاد برغم وجـود احتجاجات من حين الى آخر ٠ ولم يقتصر عمل الأساقفة ورؤساء الأديرة والكهنة الآخرون على مجرد تسلم الاقطاعات وأداء الواجبات الاقطاعية فحسب وانما شاركوا فى القتال مثلهم فى ذلك مثل الأتباع من غير رجال الدين ٠ وعملت أغنية رولان Roland على تمجيد تراث قديم على يد رئيس الأساقفة توربين **Turpin** الذى ظهرت فيه تلك القصيدة كانت الكنيسـة التى ازدهرت قوتها من جديد قد أعدت حملة عسـكرية يغلب عليها طابع التحمس من أجل تحرير الكنيسة من السيطرة الدنيوية ٠ وعلى الرغم من أن البرنامج المثالى للمصالحين لا يمكن تنفيـذه بالكامل ، فانهم أجبروا الحكام المعارضين على قبول التعديلات المهمة للعرف الاقطاعى٠

ومن ثم فان النزاع الشديد حول تقليـد العلمانيين لرجال الدين أدى الى تسـوية والتى بمقتضاها احتفظ الاقطاعيون بحقهم فى منح الاقطاعات للكهنة وتنازلوا للكنيسة عن استغلال الاقطاعات وفقا لرموز الوظيفة المقدسة ٠ وكان على الأسقف الذى تم اختياره حديثا ، فى بعض البلاد ، وبخاصة فى انجلترا ونورماندى ، أن يقدم كل فروض الولاء

الاقطاعى على اقطاعته وأن يفى بكل الالتزامات الاقطاعية ، « باستثناء حقوق درجته الكهنوتية » . وفى أماكن أخرى كانت ثمة اجراءات خاصة تسمح له بأن يقسم يمين الاخلاص والولاء للامبراطور الاقطاعى فقط . وفى كل الأماكن كانت القاعدة العامة التى وضعت موضع التنفيذ بالقوة هى أنه على الكاهن شخصيا الامتناع عن استخدام القوة ، مهما كانت هناك واجبات حربية واجبة الأداء مقابل اقطاعته العلمانية والتى يمكن تدبيرها من خلال الاقطاع من الباطن subinfeudation . وباعتبار الكاهن على مثال الأتباع الاقطاعيين الآخرين ، فانه استمر فى تقديم الأتاوات المتعارف عليها التى كان يقدمها الاقطاعى الى متبوعه ، وعليه تقديم واجبات الضيافة الاقطاعية ، وعليه تقـديم الدعاوى فى محكمة سيده الاقطاعى بالرغم من أنه كان معفيا من أى قرار تصدره المحكمة ينجم عنه الاعدام أو بتر أى عضو من أعضاء الجسم . ومن ثم احتفظت الحيازة الاقطاعية بفوائدها لكل الأطراف المعنية مع وجود بضع وسائل عملية متجددة . وكان فى استطاعة السيد الاقطاعى الحصول على نفس الخدمات والالتزامات الاقطاعية التى يحصل عليها من التابع الكنسى بنفس القدر الذى يحصل عليه من التابع العلمانى . على أن الفـرق الرئيسى بين الاثنين هو أن الكاهن الذى فى حوزته اقطاعة لا يقدم ريع طارىء على سبيل الاعانة العاجلة لسيده الاقطاعى ، ولا توجد وصاية على الكاهن الذى فى حوزته اقطاعة ، ولا يقدم شيئا عند زواج من يرتبط بصلة للسـيد الاقطاعى ، ويستعيض الاقطاعى عن تلك الخســارة بأن يحصل الاقطاعى على دخل الاقطاعة ابان الفترة ما بين موت الأسقف وتعيين خلفا لذلك الأسقف .

الالتزام بأداء الواجبات الاقطاعية :

وهناك تعديل آخر للعرف الاقطاعى فى بداية عهده الذى سوف يؤدى الى التوصل للدراسة الحالية ، وبطريقة ما ، سيقدم لنا ما يلى ذكره . بداية لدينا كل سبب ومبـــرر بالاعتقاد بأن التبعية الاقطاعية لأى رجل مقصورة على شخص . حتى لو أن تابعا اقطاعيا تمكن من تقسيم ولائه الاقطاعى بين سيدين ، فكيف يستطيع أن يعيش بين بيتين للسيادة أو يتبع قائدين فى معركة فى وقت واحد ؟ ومن الواضح أن عادة

منح الاقطاعات الى الاتباع قد أعفت هؤلاء الأتباع من الحضور المستمر لمقابلة سيدهم الاقطاعى ، وعملت على تحديد الالتزامات المطلوبة منهم بكل دقة ، وغالبا ما جعلت التبعية الاقطاعية ينظر اليها على أنها أكثر من مجرد شكل قانونى . وحيث أن الاشكال القديمة للمنح الخاصة بملكية الأراضى التى توزع كاقطاعات كانت فى طريقها الى الزوال على وجه السرعة ليحل محلها نظام الحيـــازة الاقطاعية ، فانه قـــد أصبح من المستحيل من الناحية الواقعية الحصول على الثروة الا عن طريق تجميع الاقطاعات وأجبر هذا المستلم للاقطاعة المحظوظ أن يكون تابعا تحت يديه العـديد من أصــحاب الاقطاعات الذين منحوه تلك الاقطاعات . وكانت النتيجة القانونية لذلك ظهور فـــرق بين الولاء المطلق والولاء العادى للسيد الاقطاعى من قبل أتباعه وذلك بحلول القـــرن الثانى . وكان الأول ينطبق على الســـيد الاقطاعى الرئيسى ويمثل الالتزامات الأسمى والأهم المطلوبة من الأتباع ، أما الثـــانى فهو كمجـــرد شرط الحيازة الاقطاعية ويمكن تكـــراره بالنســـبة لأى عدد من الســـادة الاقطاعيين . ووفقا لذلك وبرغم التعقيـــدات المتزايدة فى العـــلاقات الاقتصادية والسياسية ، فان التبعية الاقطاعية التى ظهـــرت منذ بداية النظام الاقطاعى ظلت قائمة كما هى تقـــريبا حتى أواخر العصـــور الوسطى . والواقع أنه طالما استمر المجتمع قائما تحت سيطرة الطبقة المحاربة ، فان العادات التقليدية ظلت محتفظة بوقتها ونشاطها وفقا لمبادىء التبعية الاقطاعية . ان حقيقة هذه العبارة سيدرك ادراكا أفضل عندما نتوصل الى دراسة نظام الايمان والســلوك لما يطلق عليه نظام الفروسية فى العصور الوسطى .

الفصـــل الثالث

نظام الفروســـية فى العصور الوسطى

طبقة الفرسان ونظام الفروسية فى العصور الوسطى :

يجب أن يكون واضحا بجلاء من الفصل السابق أن العضو النمطى للطبقة العليا الاقطاعية كان السيد الاقطاعى والتابع الاقطاعى فى الوقت نفسه . والمقصود من الفصلين التاليين توضح بالاضافة الى ما تقدم ، كان فى العادة فارسا ورجلا نبيلا. ومهما كان المقصود بالكلمة الانجليزية « فارس "Knight" فقد أصبح المقصود منها منـــذ الفتح النورمانى لانجلترا Norman Conquest كمرادف للكلمة ـ الفرنسية Chevalier ولذلك ربما يعتقد المرء أن « طبقة الفرسان "Knight hood" وكلمـــة الفرنسية "Chevalerie" وهما كلمتان مترادفتان ، ومن ثم فهما يعبران عن حالة الفارس . ومع ذلك فان الكلمة الفرنسية لها معنى ومفهوم أكثر وضوحا وشمولا ، فهى تشير الى كل السلوكيات والعادات والمثل العليا والأهداف لنظام الفروسية ، وبناء على ذلك التفسير جرى استعمال كلمة "Chivalry" والمفهوم أنها تعنى نظام الفروسية فى العصور الوسطى.

الخيول فى العصور الوسطى :

واليوم وعندما نطلق على رجل بأنه يتسم بالفروســـية والشرف والجود والكياسة "Chevalrous" ، فاننا نعنى بكل وضوح وجلاء صفة اخلاقية أكثر من مجرد تفكيرنا فى الفرس. غير أن الحقيقة تظل قائمة، وهى مهمـــة فى التاريخ الاجتماعى فى أوربا ، انه بـــدون فـــرس a cheval ، لا يستطيع أى فرد أن يكون فارسا ، a chevalier ومن وجهة النظر العسكرية فان مسألة الفرس horse ليست بسيطة كما تظهر لأول مرة . فلكى يكن هناك فرسان (caballarii) فعـلى الاقطاعى فى العصـــور الوســـطى أن يضع فى اعتبـــاره قوة المطايا (mounts) بصفة خاصة وتدريب الفرسان riders واعداد كل ما

يلزمهم بالاضافة الى اعداد الفرســـان ذاتها . ثم ما هو نوع الخيــول المتوفرة والتى يمكن استخدامها ؟ ونعلم أن الأنجلو سكسون the Anglo-Saxone حاربوا سيرا على الأقدام كجنود مشاه أو الرجالة حتى عام ١٠٦٦م ، حتى أن كبار أمراء الأنجلو سكسون الذين ذهبوا الى ساحة المعركة وهم يمتطون خيولهم ترجلوا عن خيولهم عندما وصلوا الى ساحة القتال . ومن الواضح أن السبب هو أن سلالة الخيول المحلية كانت فى أحسن الأحوال عبارة عن فـــرس من النوع الصغير الحجم pony ، والذى لا يصلح سوى فى الانتقال الى مسافات قصيرة . ولم تكن لدى قوات الملك هارولد Harold خيول معدة للقتال مثل الخيول التى حملت الفرسان الذين يرتدون ملابس حــربية بها دروع والتابعة للدوق وليم Duke William . وعلى الرغم من ذلك فان الفرس كان حيوانا نفيسا فى انجلترا قبــل الغزو النورمانى - وبلغت أهمية الفرس فى القرن العاشر فى لندن أن الفرس الواحد من أفضــل السلالات يبلغ ثمنه بصورة رسمية ما قميته أربعة من الثيران ، أو ست بقرات أو اثنى عشر خنزيرا ، أو أربعة وعشرين كبشا . ونظرا لأن الحد الأقصى لملكية الفلاح العادى كان لا يزيد عن اثنين من الثيران ، لذلك لم يكن فى مقدرة أى شخص أن يمتطى فرسا الا اذا كان صاحب مقام عال ومنزلة رفيعة . ولابد أن مكانة الفارس الذى كان يمتلك فرسا مدربا على القتال فى القرن الثانى عشر الميلادى ، كان صاحب منزلة ومكانة عالية ، اذ ان فرسه يساوى بضع مئات من الكباش .

الخدمات التى يؤديها الفارس وأهميتها الاجتماعية :

يبدو أن الفرنجة الأول قاتلوا وهم مترجلون على مثـــال الأنجلو سكسون ، وللأسباب ذاتها . وعلى العكس من ذلك فبحــلول منتصف القرن التاسع للميلاد كان على المقاتل الفرنجى النمطى أن يقاتل وهو يمتطى فرسه، ولهذا السبب كان ذلك المقاتل مزودا بقميص من الدروع، وخوذة، وترس ، ورمح ، وسيف . وعلى الرغم من أن الموضوع مازال يكتنفه الغموض للافتقار الى البحث والتمحيص ، فان النظام العسكرى الجديد نقله الغرب عن الامبراطورية البيزنطية ، حيث استعملت بيزنطة الفرسان ثقيلى العدة cataphracti حيث تميزت على الفرســان

حقيقى العدة لقبائل الهن the Huns ، والقوط Goths ، وغيرهم من البرابرة — التى كانت قد تطورت كثيرا قبل عصر شارلمان Charlemagne . ومهما تقدم فان استخدام مثل تلك القوات فى الغرب مثلما فى الشرق قد جرى بعد اجراء تحسينات على سلالة الخيول التى تستخدم فى الحروب ، وفقا لأفضل المصادر التى عثرنا عليها وأن هذا التطور الى الأفضل جرى عبر حدود الرومان فى آسيا . ولنا أن نؤكد على أن الفرس الكبير من هذا النوع كان فوق طاقة امكانات الفرنجى العادى ، وأنه حتى اذا وجد الملك فى هذا الفرس الكبير مطية ، وتجهيزه بالأدوات اللازمة ، فانه كان من الصعب عليه التعامل مع تلك التجهيزات الخاصة بالفرس . ومن ثم حدث أن الكارولنجيين الذين شعروا بحاجاتهم الى الخيول المدربة ، ونظرا لافتقارهم للموارد المالية وعجزهم عن استئجار الجنود المرتزقة لذلك كله ، اتخذوا وسيلة منح الاقطاعات الى أتباعهم الاقطاعيين شريطة أن يلتزم هؤلاء الأتباع بتقديم الالتزامات والواجبات الاقطاعية المطلوبة منهم .

وعلى الأقل ففى مملكة الفرنجة الغربية كانت الثورة فى أسلحة القتال قد بدأت ووصلت الى نهايتها عند بدء القرن العاشر الميلادى . ومن ذلك الحين استخدمت السجلات اللاتينية فى فرنسا كلمة miles وهى الكلمة التى استخدمها الرومان للتعبير عن جندى فى فرقة مقاتلة ، على أساس أنها مرادف كامل لكلمة فارس Chevalier . وكان الرجل الذى يحارب مترجلا قد أصبح موضع اهمال اذ لم يعد سوى مجرد شخص ريفى بائس ، ومزود بسلاح لا يتناسب مع المطلوب ، ويفتقر للانضباط ، ويعانى من فقدان الحيوية والنشاط . وأصبح المقاتل الحقيقى هو الرجل الاقطاعى ، وهو أحد أفراد الأسرة الارستقراطية والذى تمكنه ثروته من التزود بالمعدات الحربية اللازمة والتمتع بالتربية الفروسية الضرورية . وفى عهد شارلمان نسمع عن الأقنان ، « الذين تشرفوا بالتبعية الاقطاعية » . لكى يكون لديهم خيول ويحملون أسلحة . وبالمثل ففى أواخر العصور الوسطى ، اشتملت العديد من القصور الاقطاعية الفخمة على أتباع مساعدين ministeriales — وهم أتباع كانوا على مستوى العبيد ، ثم تفضل عليهم سيدهم الاقطاعى بعتقهم

مع احتفاظه لنفسه ببعض الحقوق ، وحصلوا على أراضى زراعية وعاشوا مثل البارونات barons . غير أن مثـــل تلك الحالات كانت دائما حالات استثنائية ولم يحدث نسيان سريع لوصمة السلالة الوضيعة المولد. والأكثر أهمية هى حقيقة أن ابن الفلاح مهما كان حرا شخصيا ، فليس لديه أمل فى مزاولة احتراف الأعمال العسكرية ، وذلك لأنه ليس لديه الفرصة فى الحصول على أى تعليم فروسى .

التعـــليم الفروسى :

ربما كان أفضل طريقة لشرح وتفســير الفروســية هى مقارنتها بالمكاسب المهنية الأخرى . ولكى يصبح الفرد كاهنا فيجب على الشـاب بلوغ سن الرشد ، وأن يتلقى قدرا معينا من المعرفة للآداب اللاتينية ، والا فيجب عليه أن يثبت بالدليل القاطع صلاحيته لشغل المنصب المقدس ثم يقوم الأسقف برسامنه كاهنا بكل وقار ورزانة . وكذلك أيضا فى أى حرفة لا يستطيع أحد أن يصبح معلما مؤهلا لتعليم الصغار المهنين دون أن يزاول مدة التدريب الكافى لمهنته التى قد تطول الى سبع سنوات واجتياز اختبارات عديدة . وفى الجامعة فى أواخر العصور الوسطى كان على طالب الوظيفة الحصول على درجة علمية منها بعد أن يكون قد أعد نفسه بنجاح لدراسة متخصصة لعدة سنوات . وهكذا ليس فى امكان أى شخص أن يولد فارسا ، أو أن يولد كاهنا ، أو يولد معلما لاستخدام الذهب فى الطلاء ، أو كولد عالما فى علم الطب . لقد كان من الضرورى على الفرد منهم أن يستحق المرتبة اللائقة بعد أن يجتاز التدريب الشاق والمضنى . وكان هذا التدريب يبدأ فى سن ماقبل الرشد. وكان على أولاد الطبقة الارستقراطية البدء فى تعلم الفروسية واستخدام الأسلحة بمجرد استطاعتهم المشى تقريبا ، باستثناء قد يقدر لهم العمل فى السلك الكهنوتى . وغالبا ما كان يتم ارسال الطفـــل وهو فى سن السابعة أو الثامنة بعيدا عن منزله لكى يتربى فى قصر ســـيد والده الاقطاعى أو أحد أقاربه المشهورين . وهناك يعمل على تنمية مهاراته فى كل التدريبات الحربية وأن يصبح على دراية تامة بأساليب الحياة فى قصور العظماء من الاقطاعيين وكل شىء عن تلك القصور . وبالرغم من أنه لن يعامل كخادم فان عليه أن يجعل نفسه صالحا لأداء العديد من

الأعمال ، مثل معاونة سيدات القصر فى بعض المهام الى مساعدة الفرسان فى اعداد خيولهم وعدة الحرب للفرس ، أو للفارس · وكثير من دروسه المفيدة هى تعلمه اللعبة الخشنة الخاصة بالعطاء والأخذ مع زملائه كما يحدث مع التلميذ فى المدارس الحالية ، والمقصود بها اجراء التنازلات المتبـــادلة ·

وكان الشاب معروفا طوال مدة التدريب والتى قد تبلغ سبع سنوات على استخدام الأسلحة باسم ولد تابع **valer** وهى كلمة فرنســـية وأحيانا يطلق عليه التابع الصغير **damoiseau** — ونعنى بذلك أنه تابع اقطاعى صغير أو اقطاعى صغير ، لأن الكلمة الأولى مشـــتقة من صيغة التصغير للكلمة اللاتينية **vassalus** والتى تعنى تابع اقطاعى ، والكلمة الثانية مشتقة من الكلمة اللاتينية **dominus** والتى تعنى سيد اقطاعى · وأحيانا وبصفة خاصة فى انجلترا كان يطلق على ذلك التابع « غلام فارس **"a page** أثناء سنواته الأولى · وعلى أية حال فعندما كان يصل سن الرابعة عشر كان يحصل على لقب جديد ، وهو « تابع الفارس الذى يحمــل دروعه **"Squire** (وهى باللغـــة الفرنســـية **écuyer**) · ومنذ ذلك الحين فصـــاعدا كان مرافقا لفارس واحـــد بانتظام ، وكان واجبه ملازمة ذلك الفارس ومساعدته · وفى حالة حدوث معركة كان « غلام الفارس » يحمل ما يحتفظ به الفارس من أســلحة احتياطية ويقود فرسه الاحتياطى اذا كان مع الفـارس فرسا احتياطيا ويربط دروعه الواقية ، وينقذه عندما يترجل عن فرسة ، أو يصـــاب بجرح ، ويتولى أمر العناية بمن يقعوا فى أسر الفارس ، ومن خلال ذلك النشاط كان غلام الفارس يتعلم العمـــل الوحشى المتعلق بالحرب مباشرة · وفى ذلك الحين ، وعندما ينمو غلام الفارس فى الجسم والقوة فانه يصبح أكثر مهارة فى استعمال أسلحة الرجال ، مثل المبارزة بالسيف وتسديد الرمح · وخاض غلمان الفرسان معارك صورية مع بعضهم البعض او يسددون رماحهم صوب عمود منصوب شدت اليه رمية أو صوب دمية او حلقة أو دائرة لتعليم الرمى موضوعة فوق سارية بطريقة تسمح لاختبار مهارة راكب الفارس عند تسديد الاصابة بكل توفيق · وأخيرا عنـــدما برهن فارس الغلام انه قد أصبح محاربا حقيقيا ، وبخاصة من خـــلال

سلوكه فى المعارك الحقيقية ، يحصـــل على حق الانضمام الى طبقــة الفرســـان .

حفلة الحصول على مرتبة فارس وتسلمه اقطاعة :

من المعروف وفقا لما ورد عند تاكيتوس Tacitus الذى وصف عادة الجرمان القدامى أنهم كانوا يعطون الشاب ترسا وحربة اشارة الى أنه قد تسلم عزبة زراعية يتولى أمورها الرجال . ويبدو أن السـلوك نفسه ظهر من جديد فى عهد الكارولنجيين Carolingians ، ونعـلم أنه فى سنة ٧٩١م جعل شارلمان Cherlemagne ابنه الأميـــر لويس Prince Lous يتقلد سيف الفروسية احتفالا ببلوغه سن المراهقة ، وبعد ذلك بسبع وأربعين سنة قام لويس بدوره بتقليـــد ابنه شـارل Charles التابع خمس عشرة سنة ، « بأسلحة الرجولة » ، ونعنى بذلك السيف . وهنا يمكن أن نرى حفلة الحصـــول على مرتبة فارس وتسلمه اقطاعة adoubement فيما بعد التواريخ السابقة ، وهو النظام الذى استمر لفترة طويلة فى توزيع الاقطاعة بين الأتباع مقابل تقديم خدمات منها الحربية أو أى خدمات أخرى كرمز للتبعية . وهكذا تمثل قطعة القماش المحتوية على رســـومات وصور the Bayeaux Tapestry فروسية الايرل هارولد Earl Harold ، وتبعيتــه لوليم النورماندى وفقا للأســطورة . (وهنـــا منح وليم اقطاعة الى هارولد) . وكان الايرل مرتديا بالفعل دروعا وممسكا برمح فى يده اليسرى ووضع بيده اليمنى ســـيف عنـــد خصره ، ثم أكمـــل الدوق the duke كل التسلح الواجب بأن وضع بنفســـه خوذة فوق رأس الايرل . وهناك أمثلة لا حصر لها فى الحوليات الفرنسية ، وفى أناشيد البطولة Chansons degeste ، التى برغم التنوع والاختـــلاف فى التفاصيل فانها تتفق معا فى الأصول . ومهما كان اشتقاق الكلمات فان التعبير الانجليزى ، « منح لقب الفروسية » لابد أن له علاقة وثيقة مع التعبير الفرنسى . ويذكر مؤرخ لاتينى أن هنـــرى بن وليم الفاتح ، « تولى القيام بتوزيع الاقطاعات بنـــاء على هبة والده له » . وفى العصر الاقطاعى كانت فرنسا تؤجل توزيع الاقطاع حتى يبلغ الشـــاب العشرين أو الحادية والعشرين وان كان التأجيل ناجما عن صعوبة معرفة

العلوم العسكرية بالاضافة الى الحاجة الى النضج الاكثر من جانب من هو متوقع له ان يصير حائزا لاقطاعة جديدة .

ومن ثم فعلى الرغم من أن أى فارس فى استطاعته تعيين فارس ، فان اللقب الذى يصفه تاكيتوس Tacitus ، الذى كان يمنحه الوالد لولده ، أو أى فرد من أقاربه ، أو أى رجل مهم فى المنطقة التى يعيش فيها ، وكان ذلك أكثر أهمية عنـدما يتلقاه الفـارس الجديد من يدى محارب مشهور . وباختصار كان تابع الفارس يعتبر نفسه موضع تقدير لشجاعته فى ساحة المعركة . وفى تلك الحالة فان الاحتفال كان بلاشك يحتفظ ببساطته القديمة ، متضمنا على الأكثر منح سيف ، والقاء بعض كلمات النصح والارشاد والحث على العمل الجاد ، ثم اقامة حفل بمناسبة بدء المرء منح المرء رتبة فارس . وهذه الأخيرة لم تكن فى الأصل ضربة مهذبة ، وانما ضربة عنيفة تسدد على مؤخر العنق - ومن الواضح أنها كانت وسيلة تقليدية معبرة عن مدى خطورة المهمة الجديدة الملقاة على عاتق الشاب ، وظلت تلك الأسس واضحة وشهيرة فى الاحتفالات الكبرى التى كانت تقام لمنح ابن الملك رتبة فارس أو أى أمير آخر فى القرن الثانى عشر ، والتى يتبعها كما عرفنا ، قيام التابع الاقطاعى بالالتزام بدفع اتاوة اقطاعية aid الى سيده الاقطاعى .

ومع ذلك ففى مثل هذا الجو الذى تسوده المودة يسـبق توزيع الاقطاعة مجموعة من الطقوس أو الشعائر المجهدة ثم يتبعها استعراض للمهارة من قبل المرء الذى سيحصل على لقب فارس .

مناقب الفروسـية :

من بين العبارات الكثيرة التى تلقى فى الحفلة التى تقام عند منح المرء رتبة فارس ، وأكثرها فصاحة وايجازا كانت عبارة : « كن فارسا صادقا ! » ، ولابد أن يكون الفارس صادقا ولا يقال شىء بعـد ذلك . بيد انه بالنسبة للقارىء فى الوقت الحاضر ، والذى يفتقر الى المعرفة الفروسية ، فان تلك الكلمة فقدت قوتها . والشجاعة يمكن أن تعنى اليه مجرد عمل بارع من نوع ما . ولكى يستوعب فهم العصر الاقطاعى لابد له من دراسة الأمثلة والنماذج ، ومنها أغنية رولان Roland ، والتى

فاقت شهرتها أى ملحمة أخرى فى العصور الوسطى . كان رولان شجاعا - الى حد التهور الكامل : فقد مات رولان قتيلا لأنه احتقر نتيجة أوليفر Oliver ، فلم يقم بنفخ بوقه الا اذا تم تحقيق انتقام لموته . وقال الشاعر : « كان أوليفر على درجة عاليـــة من الادراك والوعى ، وكان رولان فارسا مخلصا » . فبكل شهامة . حمل على الأعداء على الفور مجسدا بذلك الأمل الباعث على الفخر ، فى حالة سقوطه ، أنه سيكتب له أن يكون فى الذاكرة ، على أنه كان ، « فارسا شهما » . ان رولان كانت له خطيبة تدعى أويد Aude ، ولنا أن نخمن أن يظل اسمه عالقا فى ذهنها كما يجب . وبالنسبة الى أوليفر رفيق سلاحه ، فقد كان رولان يكن له شعورا جارفا بالمحبة . وكان رولان ابنا وفيا للكنسية على الدوام ، ومع ذلك فليس الحب أو الصداقة أو الدين الدافع لقيام رولان بالعمل البطولى ، وانما كانت التبعيـــة الاقطاعية هى الدافع الوحيد لذلك العمل البطولى . وفى اللحظة الحاسمة كان ولاء رولان لا يقبل التقسيم ، ففى ولاء صرف لسيده الاقطاعى قدم بكل سعادة ذلك الولاء على أى شىء آخر .

ومن أغنية رولان ، ومن مصادر أخرى كثيرة يمكن لنا أن نستخلص أن الفضائل القديمة للمحارب البربرى ظلت أساسية بالنسبة للفرسان فى الحادى عشر الميلادى . وقبل أى شىء آخر فقد أشارت البراعة الفائقة فى الأداء الى الشجاعة والاخلاص . ولا يوجد رجـــل يتصف بالشهامة يستطيع أن يتعرض ولو لمجرد قدر ضئيل من الشك فى الجبن أو الخيانة ، لأنه كان من الأشجع فى المهاجمة بكل جسارة يضرب عدوا لا يحمـــل سلاحا أو غير مستعد . ولا بد أن يحافظ على الدوام على عهد الاخلاص والولاء مهما كلف الأمر . واذا ما أصبح الفارس تابعا لشخص آخر لن يحاول الهرب وأن كان فى استطاعته الحصول على حريته عندما ينقذه صديق أو دفع فدية . غير أن الولاء الى حد المحافظة على العهد كان جانبا واحدا فقط من التعهدات الاقطاعية المتبادلة . على أن الشرف الذى يلزم السجين من أحد الفرسان يفترض أنه يكون موضع احترام وفقا للمعاملة الحسنة التى يتلقاها هذا الفارس من قبل أسره أو اعتقاله . ويستحق التابع الاقطاعى المخلص كل تقدير من قبـــل سيده الاقطاعى

الأمين . ولم يكن من واجب الفرسان تحمل الاهانة والاستخفاف ، انما كان الرد الصحيح على أى نوع من الأذى هو التحدى الرسمى . وكان الرجال الذين يتصفون بالشهامة والذين يحترمون أنفسهم يتأثرون على وجه السرعة اذا ما لحقهم أذى وتقحمون عائلاتهم فى عدوات دموية وهو الأمر الذى ورد ذكره مرارا وتكرارا فى الحيولات ، وفى أناشيد البطولة Chansons de geste . ولم ير المؤرخون المعاصرون فى ذلك أى انتهاك للقواعد العامة للفروسية .

الأصول العامة للسلوك السليم عند الفرسان :

يميل كل مجتمع الى أن يكون له نظام للأصول العامة للسلـــوك الصحيح ، والذى يمتثل اليه أكثر من أوامر القانون الوضعى - فكر فقط فيما سوف يفعله الرجل الجدير بالاحترام وما لا سوف يفعله . وكذلك كان الأمر فى العصور الوسطى . وكانت الأصول العامة للسلوك السليم عند الفرسان تحظى بالاعتراف أينما انتشرت العادات والأنظمة الاقطاعية لأن ذلك يعنى الاجلال والاحترام للطبقة الاقطاعية الارستقراطية . فى مقابل الحملة السابقة فقد ورد فى كتابات العصور الوسطى الكثير عن وصف كل الأعمال الوحشية والشريرة التى ارتكبها رجال طبقة النبلاء والأشراف . ولكن ما هـــو الرأى الذى يمكن أن نأخذه بعين الاعتبار ؟ ولما كانت الكتابات التاريخية اللاتينية قد تمت كتابتها للكهنة المثقفين ، لذلك فهى قد تدين كثيرا ما قد يبدو للعلمانيين العاديين على أنه غير مذنب . أما وجهات نظر الطرف الآخر فهى موجودة فى أناشيد البطولة the Chansons de geste ، التى تمت كتابتها باللغة العامة لادخال البهجة والسرور فى نفوس جمهور الطبقة الارستقراطية . واذا افترضنا أن مثل تلك الأعمال لا توافق أى شىء مما يعتبره معظم الفرسان مخز وشائن ؟ ففى استطاعتنا التوصل الى استنتاجات مثيرة للاهتمام . ويبدو أن الرجال الذين يتصفون بالشجاعة والشهامة ، لم يكن لديهم كراهية للعنف والقسوة ، وفى نطاق القواعد المقبولة للقتال كان من المتوقع أنهم كانوا متعطشين للدماء ومجردين من الحرمة . ومهما أظهروا من كياسة وحسن معاملة فان ذلك كان قاصرا على أفرد طبقتهم . وكان أمرا عاديا تماما بالنسبة للفارس أن يعيش على ما يجنيه من غنائم الحرب، والنهب

وسلب الأعداء • وكان الفارس يعتبر النساء مجرد سلعة نافعة بالمعنى الضيق للكلمة • وكان واجب الزوجة تربية الأطفال والمحافظة على الهدوء داخل المنزل ، واذا ما أكثرت زوجة من الحديث الى حد الثرثرة فهى تستحق صفعة على وجهها • وكان الاحترام قاصرا على احترام المحارب •

التأثيرات الدينية والأدبية :

وكان نظام الفروسية فى العصور الوسطى غير مسيحى فى بداية الأمر • بيد أن طبقة الفرسان أصابتها مسحة من الدين عندما بسطت الكنيسة نفوذها فى كل جوانب الحياة فى القرن الثانى عشر • ويبدو أن مشاركة رجال الكهنوت فى احتفال تسليم الصليب على الأسلحة التى تسلمها الفارس الجديد الذى تسلم اقطاعة • ومن الناحية المنطقية على الراغب فى تسلم اقطاعة أن يعد نفسه لعبادة الله عن طريق الصـــوم ، والصلاة ، وحضور القداس ، وعليه أن يستمع الى موعظة فى سلوك وواجبات الجندى المسيحى قبل أن يحضر الحفلة التى تقام عند منحه رتبة فارس • وفى المواكب الكبرى التى كانت تتألف من أشخاص يمتطون الخيول ويزفون بأبهى الحلل احتفالا بمنح رتبـــة الفروســية للأمراء والنبلاء أصبح وجود المقومات الكنيسة أمرا بارزا على وجه الخصوص فى ذلك الموكب • وأبدت طبقة النبلاء اهتماما طفيفا بالوعاظ الذين يشجبون القتال من أجل الشهرة والغنيمة كالأنحراف تجاه القتل العمـد وعمليات السلب والنهب •

والواقع أن نظام الفروسية فى العصـور الوسطى الذى يشـــغل اهتمامنا لم يقم الخيال الكهنوتى بوضعه ، كما أنه ليس من بنات أفكار أحد كتاب القصص • وطالما كان المجتمع فى غرب أوربا تحت سيطرة طبقة الفرسان ـ وكان تراث طبقة الفرسان هو تراث المحارب الهمجى بصفة أساسية ـ فان نظام الفروسية استمر على أنه نظام حقيقى تماما • فكانت كتابة اناشيد البطولة Chansons de geste مســألة قديمة بالفعل غير أنهم قبلوها وجعلوا لها شكلا مثاليا الى حد ما • وبسبب العادات المتأصلة والراسخة والميل للاجحاف قام معظم الفرسان بتحدى السلطة الأدبية سواء أكانت دينية أم علمانية • ويبدو أن نظام الفروسية

الأساسى ظل دائما بصفة عامة طوال القرن الثانى عشر • ولا ريب أن وسائل الرفاهية وأسبابها المتزايدة فى ذلك العصر شجعت على وجود مستويات جديدة من الكياسة واللطف فى المعاملة وهى التى أملتها النساء الى حد كبير • وعلى الأقل فقد أحرز الشعر الرومانسى الذى له طابع فروسى شعبية كبيرة ، وكان هذا الشعر يلقى فى القصور الفخمة ، وفى ذلك الحين الف أصحاب التذوق الأدبى من النبلاء أغانى شعبية اجلالا واحتراما لزوجاتهم وتلهفوا شوقا على قصص الغرام والحب والمغامرة فى البلاد البعيدة • بيد أنه من الصعب علينا التهرب من الأحساس بأن النمط السلوكى الجديد لم يزد عن كونه مجرد تظاهر بالشعور العاطفى• ويجب أن نثق بأن الفارس العادى كان يزاول أعماله الحـــربية بنفس الطريقة القديمة ، وغير حريص على الفكرة القائلة بأن الفروسية الحقة تحتم عليه الظهور بمظهر المنظور على الحب باستمرار •

الفصـــل الرابع

طبقة النبـلاء الاقطاعية

أصـل طبقة رالنبلاء :

لقد انتهزنا الفرصة مرارا وتكرارا فى الصفحات السالفة للاشـارة الى أن عصر الاقطاع كان أرستوقراطيا تماما . وكانت الطبقة الحاكمة تتكون من الذين فى حوزتهم اقطاعات، وعلى هذا النحو تمتعوا باحتكار فعلى للثروة ، ومكانة حربية عالية ، وسلطة سياسية . وكان أحد أفراد تلك الطبقة بالضرورة تابع اقطاعى لصاحب اقطاع ، والذى سلم اقطاعة لتابعة ، وهذا التابع يعتبر سيدا اقطاعيا أيضا للذين استأجروا الاقطاعة التى فى حوزته ، ومن الناحية المهنية لابد أن يكون ذلك التابع الاقطاعى فارسا ، ما عدا فى حالة كونه أحد الكهنة ، ويعامل هذا الفارس كأحد النبلاء . ونظرا لأن طبقة النبلاء تتكون ممن فى حـــوزتهم اقطاعات وكذلك أسرهم ، فقد أصبح فى نهاية الأمر من الممكن أن يحصل أحـد النبلاء على لقب نبيل فى بعض البلاد وذلك عن طريق شراء الأراضى الزراعية المملوكة لأحد النبلاء . بيد أن ذلك يساوى عودة الى القانون القديم . وفى ظل ذلك النظـــام الاقطاعى الجـــديد كانت النبـــالة **nobility** مسالة منزلة رفيعة شخصية . وكما لاحظنا نجد أن حيازة الاقطاعة يقتضى ضمنا التبعية الاقطاعية ، وأن التبعية الاقطاعية تقتضى ضمنا وجود طبقة أرستقراطية على استعداد للحرب . فقبائل الفرنجة **Franks** كانت مشهورة بالميل للحروب وذلك قبل غزوهم لبـلاد الغـــال **Gaul** وبعد غزوهم لها . المعنى الكامل لكون الفرد أحد الفرنجة **a Frank** ـ هو أن يكون الرجل « حرا » ـ هو الفرد الذى كان عليه أن ينتمى الى طبقة المحاربين .

وهناك المبرر الكامل على الاعتقاد بأنه حتى فى عهـــد المملكة الميروفنجية **the Merovingian Kingdom** كان المحـــارب النمطى يختلف اختلافا واضحا عن المزارع النمطى . وكان الرجل الثانى لا يزيد

من كونه مجرد تابع من الناحية الاقتصادية ، بالرغم من أنه من المحتمل أن يكون حرا من الناحية القانونية ، أما الأول فكان على العكس اذ كان الى حد ما مالكا أرضا ومن ثم كان قادرا على أن يعيش فى مستوى رجل من البرابرة يجمع الى نبالة المحتد شهامة ومروءة . والواقع أنه كان يلقب من الناحية الاسمية باسم أممى gentilis ، أو ربما أطلق عليه اسم رجل ينتمى الى أسرة عريقة nobilis ذلك لأن التعبيرين استمر استعمالهما على نحو مترادف طوال فترة أوائل العصور الوسطى . ومن ناحية ثانية فعلى الرغم من أن الفـــارس كان أرفع مقاما من المـزارع العادى فان هذا الفارس الذى ينتمى الى أسرة عريقة والبدائى كان من الصعب عليه أن يزود نفسه كفارس بحمل أســلحة ثقيلة . وعلى ذلك فكان على صاحب الاقطاع الذى فى حاجة الى فرسان مسلحين أن يظل محافظا بجهاز كثيف من الأتباع أو أن يلجأ الى توزيع الاقطاعات على الأتباع كما فعل الكارولنجيين the Carolingians . وكما أوضحنا فيما سبق كانت النتيجة التطور السريع فى النظام الاجتماعى ، وظهور طبقة الفرسان فى العصر الاقطاعى . وكونت تلك الطبقة من الفرسان وزوجاتهم وأطفالهم الطبقة العليا فى أوربا لعدة قــرون من الزمان . ولكى يكون المرء أحد النبلاء كان لابد له أن يكون فارسا ، أو على الأقل مرشحا للفروسية ، ففى الأصل اذا ما هجر شاب نبيل المحتـــد الحرفة الحربية ، فمعنى ذلك أنه ترك مكانته السامية الى الأبد . ولا ريب أن المرأة لم تحقق شيئا لنفسها بنفسها ، طالما أنه ليس فى مقـــدورها أن تكون فارسا ، ولم يكن أمامها أمرا يحقق لها الشرف العظيم يفوق زواجها من أحد الفرسان .

التسلسل الهرمى الاقطاعى :

ولكى ندرك جيدا فكرة طبقة النبلاء فى العصور الوسطى علينــا أن نتغاضى عن طبقة النبلاء الانجليزية التى ظهرت فيما بعد . وفى اللغة الانجليزية اخذ العرف القديم بكلمـــة « رجـــل نبيل المحتـد "gentleman" بدلا من كلمة ، « أحد النبلاء "nobleman" . والواقع انه لا تجد مراتب ودرجات بالنسبة لنبالة المحتد gentility ، فالرجل نبيل المحتد هو رجل نبيل المحتد ، دون الأخذ فى الاعتبار لرفعة المقام

السياسى أو لثروته . وكذلك كانت الحالة بالنسبة للفارس . وفى نطاق ان الفروسية كانت الجوهر الأساسى لطبقة الفروسية ، وأن قيمة الرجل الحقيقية يمكن اثباتها فى ساحة الوغى فقط . ومع ذلك فباستثناء ميدان القتال كان الانتماء الى طبقة النبلاء مسألة حيازات اقطاعية . وكان معظم الفرسان أتباع اقطاعيين وهكذا حصلوا على اقطاعات fiefs وكان الفارس الذى فى حوزته اقطاعة أكبر يعتبر تابعا اقطاعيا أكبر ، ومن وجهة النظر تلك كان أحد النبلاء الأشهر . وبحلول القرن الحادى عشر كانت فرنسا قد توصلت الى الاعتراف بوجود تسلسل هرمى اقطاعى ، وكان ذلك التسلسل الهرمى الاقطاعى يتميز بسلسلة من الأسماء المميزة . وكان بعض تلك الأسماء من عهد الدولة الكارولنجية ، والبعض الآخر ينتمى لعصر جاء بعد العصر الكارولنجى . وبمراجعة تلك الأسماء يمكن لنا التوصل الى معرفة تكوين طبقة النبلاء ، وكذلك تطور تلك الطبقة فى أوائل عهدها الى حد ما .

ولا بد لنا أن نضع فى اعتبارنا حكام الامارات وهى الاقطاعات الملكية الكبرى التى كانت قد أصبحت تتمتع بالحكم الذاتى من الناحية الواقعية . وكانت الامارة الواقعة على تخوم الدولة الكارولنجية نموذجا لذلك . والتى كانت تتكون من عدد من الكونتيات ، وكانت كلها تحت قيادة قائد حربى أطلق عليه لقب المركيز marquis أو الدوق . وفى العصر الاقطاعى حملت كل من نورماندى Normandy ، وبورجندى Burgundy ، وأوتيين Aquitaine اسم دوقية ، الا أن أقاليم أخرى من النوع نفس حملت اسم كونتيات . وعلى سبيل المثال أطلق على منطقة الحدود القديمة القوطعة اسم كونتية تولوز Toulouse بعد أن صارت تابعة لكونت تلك المدينة ، وانتشر استعمال مشابه فى امارات مهمة مثلها . وعلى مثال ذلك فى بلاد الفلاندر Flanders ، وشامبنى Champagne . ومن ناحية أخرى احتفظ لقب الكونت بقوته الأولى فى بعض الأحيان حيث أطلق على أقليم صغير يشتمل على دوقية . وفى بداية لأمر كان وكيل الكونت يطلق عليه الفايكونت viscount . وبحلول القرن الحادى عشر كان الفايكونت قد حول وظيفته الى اقطاعة كما حدث فى أكويتين

Aquitaine ، وأحيانا ظل يشغل وظيفته الادارية بنــاء على تعيين الأمير له كما حدث فى نورماندى · وانحصر الواجب الأساسى لرئيس القلعة فى المحافظة على قلاع سيده الاقطاعى - وهو عمل أساسى فى الدفاع عن كل اقطاعة كبيرة والتى قد ترتبط بالســلطات الادارية الحكومية الأخرى مثل فلاندرز Flanders · وعلى الرغم من امكانية الاشارة الى أى تابع اقطاعى على أنه بارون baron أو ســيد فى حوزته اقطاع seigneur فانه غالبا ما استعمل هذين اللقبين للتمييز بين النبيل الذى ينتمى الى الدرجة الأولى من النبلاء ، والنبيل الذى من الدرجة الثانية chevalier فقط · وكان النبلاء من الدرجة الأولى فى حوزتها بارونيات baronies أو سينيوريات seigneuries وكان من المتوقع أن يكون عدد كبير من الاتباع الذين يتبعونهم اقطاعيا ، فى حين أن النبلاء من الدرجة الثانية chevaliers فى حــوزتهم اقطاعات تسمح لهم بأداء الالتزامات الاقطاعية بصفة شخصية فقط ·

ونتيجة للاصلاح الكنسى فى القرن الحادى عشر الميلادى أوجــد النبلاء الفرنسيون لقبين اضافيين · وكما علمنا كان الكهنة قد اتخذوا دورا نشيطا فى الجهود الحربية فى أوائل عهــد الاقطاع · ثم حتمت عملية تطبيق القانون الكنسى ضرورة قيام الكنائس بتعيين العلمانيين للدفاع وتعويضهم بمنحهم اقطاعات · وأطلق على الموظف المعين للدفاع عن الدير لفظ an avoué (advocatus) ، أما الذى يدافــع عــن الأسقفية فقط أطلقوا عليــه اسم نائب الســيد الاقطاعى a vidame (vice dominus) · واذا ما صدقنا الشكاوى التى وردت فى السجلات القانونية نجد أنه كثيرا ما تردد ذكر تلك الوظيفة صــارت وراثية فى اسرة اقطاعية وتحولت الى ذريعة للســلب والنهب والابتزاز وكثيرا ما طالبت الكنيسة الملك من أجل حمايتها من « المسئولين عن حمايتها »· وفى ذلك الحين فان ابعاد الأساقفة الذين يتصفون بصفة كرم المحتد أو شرف النسب عن الأعمال العسكرية قد أقصــاهم بالضرورة عن الطبقة الارستقراطية ذات الطابع الفروسى · ومع ذلك فقد كان فى حوزتهم اقطاعات كبيرة لذلك استمر الاعتراف بهم على أنهم عليد مثال النبلاء ، وفى عهد دولة أسرة كابيه Capetian monarchy وصــل بعضهم الى

حد التمتع بالمرتبة الرسمية الخاصة بالدوق duke أو Count
ومن ناحية ثانية ، فان الأهمية السياسية لطبقة النبـلاء هى الموضوع الذى سوف نعالجه فى الفصل التالى ، أما فى هذا الحين فسننظر الى تلك الأنشطة للحياة اليومية باعتبارها تتضـمن اهتماما مباشرا لطبقة النبلاء فى عصر الاقطاع .

الأسلحة والبذلة الحربية للنبلاء فى العصور الوسطى :

ان المحارب من طبقة النبلاء فى القرن الحادى عشر للميلاد قد تم تصويره بكل قوة وحيوية فى نسيج بويبه Bayeux Tapestry ، وهـو شريط طويل من قماش الكتان به مناظر ممزوجة بالخيط الملون لتصف لنا الغزو النورمانى لانجلترا . وتوضح لنا الصورة التى على النسيج أن المحارب العادى كان يرتدى زيا يتكون من رداء طويل فضفاض يشـد بحزام حول الخصر a loose tunic وتحتهيرتدى بنطلونا قصـيرا ضـيقا a tight fitting hose . وعندما يقاتل هذا المحارب يمكن له أن يرتدى ردءا خارجيا بلا كمين يطرح على الكتفين a Cape أو عباءة mantle مثبت بمشبك عند رقبة المحارب ، وأحيانا يضع قلنسـوة a hood يمكن سحبها لتغطى راسـه ورقبته . وفى حالة حدوث حملة حربية يستخدم المحـارب معطفا مصـنوعا من الدروع a hauberk بدلا من العباءة ، ويرتدى قميصا له دروع يثبت بخياطة الدروع المعينة بمشد مصنوع من الجلد أو – العملية التى تتكلف نفقات باهظة – عن طريق لحم الأجزاء المعدنية للحلقات بحيث تكون حلقـة سلسلة معدنية متصلة باستمرار ببعضها البعض . على أن ذلك المعطف hauberk كان يمتد حتى الركبة فقط ، وكان مشقوقا عند الطرف الأسفل حتى يتمكن المحارب الذى يرتديه من أن يمتطى صهوة جواده . وتوجد أغطية طويلة للأكمام ونوع من القلنسوة مزود بغطاء من الدروع لحماية ظهر الرقبة وكان هناك بطانة من اللباد فى القلنسوة . وكانت الأخيرة قلنسوة مخروطية من الحديد ولها امتداد فوق الأنف . وعلى خلاف ذلك فقد كان وجه الفارس يترك دون ما يحميه مثل ما كان يحدث مع مساعديه أسفل ساقيه ، باستثناء ما يطلق عليـه حاليا اسم لفافات السـاقين puttees . ووفقا لما ورد عن قطعـة لنسـيج الملونة

the tapestry كانت الطماق المصنوعة من الدروع leggins of mail علامة على شخصية بارزة وكانت شخصية الدوق النورمانى بصفة خاصة وبغرض الحماية الاضافية فقد حمل الفارس ترسا يشبه الحدأة لوجود سيور من الجلد مرتبطة بالجانب الأسفل للترس . أما الواجهة الخارجية للترس فكانت له واجهة معدنية مثبتة على قاعدة خشبية ومزينة بصورة او شكل هندسى . وفى موقف الهجوم كانت الأسلحة التقليدية هى حربة طولها حوالى ثمانية أقدام ، وسيف له مقبض متقاطع حيث يتدلى عند خصره على الجانب الأيسر .

الفرس المعد للقتال :

قامت الملحمة الاقطاعية المعاصرة بما قامت به قطعة قماش بايو Bayeux Tapestry من تمجيد الخيول مثلما مجدت الفرسان . ويبدو ان الفنان المجهول كان مبتجها عند رسم الذكور الضخمة من الخيول الموجودة فى الجيش النورماندى بالاضافة الى أدق التفاصيل عند عدة حرب تلك الخيول . ومن ثم نجد تصويرا دقيقا للجامات bridles وسيور اللجام reins والركابات stirrups ، والسروج saddles ، وأحزمة السروج girths ، وأربطة الصدر breast-staps . وربما نلاحظ أن السرج فى العصور الوسطى كان من أصل شرقى ، فهو مستدق الراس فى المقدمة وفى المؤخرة ، وربما كان ذلك الفرس المعد لقتال قد جاءت أصوله من الشرق أيضا . ومهما يكن من أمر أصل عدة الفرس المعد للقتال فان السرج والركابات كانت لها اهمية كبرى للفارس . وكان الفارس يرتدى بذلة حربية ثقيلة ويحمل ترسا على ذراعه الأيسر ويمسك بسيور اللجام فى يده اليسرى ، وكان من المتوقع أن ينطلق بفرسه بأقصى سرعة ويهاجم عدوه بتسديد الحربة الممسك بها فى يده اليمنى فى حين أنه يتفادى هجوم مماثل موجه اليه من عدوه . ولكن كيف يستطيع الفارس القيام بكل هذه الأعمال مالم يكن جالسا على مقعد مثبت جيدا على ظهر فرسه ؟ وبالطبع لم تكن هيستنجز Hastings معركة بين جيشين يستخدمان فرسا وهما يقتتلان ، بيد أن قطعة قماش بايو تعطى صورة حية عن الهجوم المفاجىء الذى قام به النورمان ، وتظهر كيف أن الفارس استخدم سيفه

عند التلاحم ، بعد أن انقض العدو أو بعد انكسار رمحه وسـقوطه من فوق فرسـه .

أصـول شعارات النبالة :

شهد القرن الثانى الميلادى تغيرا طفيفا فى الزى الحربى . واستمر استخدام المعطف المصنوع من الدروع the hauberk على أنه القطعة الأساسية فى البذلة الحربية التى يرتديها الفارس ثم تطورت البذلة بصفة مستمرة حتى شارك الفارس فى مباراة بين الفرسـان فى العصـور الوسطى ، وارتدى خودة على شكل برميـل وهى التى غطت بالكامل وجهه ، وكان بها مجرد شقوق طويلة ضيقة لتكون كثقوب لترى العين من خلالها . غير أنه كان يفضل نظام الخوذة القديم فى الحرب العمليـة نظرا لأن معدات الخوذة التى من ذلك النوع كانت تتركه نصف أعمى . وظلت أسلحته حربة a lance وسيف ـ وأحيانا بلطة معركة ، على الرغم من أن قطعة قماش بايو أظهرت أن تلك الأسلحة استخدمها الانجليز فقط . وظلت التروس أيضا كما هى فيما عدا أنها اتجهت الى تصغير حجمهما وصارت تحمل شعار النبالة Coats of arms المعتـرف بها . ولم تكن مثل تلك الشعارات مجرد مسألة حلية . فقد عمل الفارس على استعمال الأقنعة بشكل فعال حتى باستخدام الزى الحربى البدائى ، وفى منظر مشهور فى قطعة قماش بايو Bayeux Tapestry يشـاهد الدوق وليم وقد رفع خوزته الى أعلى لاثبات بطلان الشائعة التى ترددت عن سقوطه قتيلا . وعلى ذلك يمكن لنا أن نتصور أن هذا الرسم الموجود على الترس أدى الى تحديد شخصية مالك ذلك الترس ، وأصبح سـمة دائمة تشير الى عتاده الحربى ، وفى آخر الأمر صار هذا الرسم بمثابة علامة على الاعتزاز بأصل الفارس ونسبه . وعلى أية حال ففى نهاية القرن الثانى عشر كان من المألوف بالنسبة للعائلات الكبرى أن يكون لها شعار لنبالة مميز ـ خاصية فريدة بشعار النبـالة للرئيس ، وكان من الممكن أن يتم تطوير هذا الشعار للتفريق بين اقارب الرئيس وأتبـاعه الاقطاعيين . وهناك أمثلة شائعة مثل زهرة الزنبق the fleurs de lys هى شعار النبالة لأسرة كابيه Capetians ، ورسم يمثل أسدا يتقدم

نحو المشاهد the Leopards ، وهو شعار النبالة للاسرة الأنجوية Angevins .

الصراع الاقطاعى :

يمكن استخلاص الخاصية العامة للصراع الاقطاعى بسهولة مما ورد ذكره عن التبعية الاقطاعية ، ونظام الفروسية . وعلى الرغم من أن الجيش الاقطاعى اشتمل أحيانا على رامين بالسهام أو الرجالة foot-soldiers ، فانه كان جيشا من الفرسان بصفة أساسية . وكان كل فارس . رجلا نبيلا محاربا ، كرس حياته للايمان بالبسالة الشخصية قبل أى شىء آخر ، وكان ذلك منسجما بقوة مع الانضباط الحربى . وكانت شجاعته هى شجاعة المغامر المقدام . وكان ولاءه هو ولاء تابع اقطاعى الى سيد اقطاعى معين فى المقام الأول . بل ان التابع الاقطاعى المثالى قد يتجاهل المطالبة بحقوقه – وبخاصة المكاسب الناجمة عن جمع الغنائم ففى حالة التحام جيشين اقطاعيين ، فان كل مشارك من الفرسان كان أتم الاستعداد للتصرف بما هو ملائم . وكانت النتيجة النهائية تتوقف على سلسلة من المبارزات التى تلعب فيها الشجاعة الشخصية الدور الحاسم . بيد أن المعارك على نطاق واسع كانت نادرة فى أوربا الاقطاعية . وكانت الصفة المميزة للصراع فى العصر الاقطاعى تتكون من اغارات السلب والنهب فى داخل أراضى العدو الى حد ما ، ومن مناوشات بين جماعات من الفرسان ، والاشتباكات الناجمة عن محاصرة القلاع .

التحصينات فى أوائل العصور الوسطى :

وفى أوائل العصور الوسطى كان موضوع الفن المعمارى المعقد قد انحصر فى شكل مبسط . ففى اللغة الانجليزية نجد كلمة قلعة Castel وهى بالفرنسية Chateau ، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة Castel ، وأصلها لاتينى وهو Castellum ، وهو المصغر من كلمة Castra اللاتينية . وفى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية كانت كلمة Castra تعنى معسكرا للجند يضم فرقة قوامها

ما بين ثـلاثة آلاف الى سـتة آلاف مقـاتل فى أوقات مختلفـة a legionary camp وكان ذلك المعسكر يتم تشـييده من مبنى يحيط بقطعة أرض مساحتها حوالى خمسين فدانا ، فى حين أن castellum هى عبارة عن حصن صـغير ربما كان فى خمس حجم Castra ومع ذلك اعتاد الغزاة البرابرة استـخدام الكلمتين اللاتينيتين بالاضافة الى الكلمة الالمانية burg والتى تعنى مدينة محصنة ، بل وعلى أى مكان محصن ، حتى ولو كان مدينة مسورة ، ذلك الاستعمال قائما فى الفترة التالية ، عندما بنى الحكام المحليـون مجموعة منوعة من الحصون والمعاقل . واذا ما نظرنا الى ما وراء الكلمات الى الأشـياء المشار اليها ، يمكن أن نميز الفرق بين النوعين الأساسيين . على أن النمط الأكثر قدما كان موجودا فى انجلترا ، وفى القارة الأوربية كذلك، وكان تقليدا بدائيا للقلعه الرومانية القديمة Castra _ وكان ذلك النمط يشغل مساحة تقدر بحوالى ثلاثين فدانا ويحيطها خندق للدفاع ، وجسر ترابى ، وسياج من أوتاد خشبية قوية مسـتدقة a wooden palisade . وعلى الرغم من أن مثل هذا الحصن يستخدم كمركز قيادة للأمير الاقطاعى أو نائبه ، فانه قد تم اعداده فى الأصل ليصبح ملاذا يحتمى به سكان المنقطة المجاورين عندما يتعرضون لهجوم الفايكنج Viking أو الهجوم المجرى Hungarian attack . ويبـدو أن النمط الآخر للحصن قد كان تطورا فرنسيا مميزا للقرن العاشر الميلادى. وكان ذلك الحصن صغيرا نسبيا ، وفى العادة كان اتساعه أقل من ستة أفدنة ، ويتميز بتقسيم داخلى الى قسمين أحدهما يدعى the motte والقسم الآخر هو سور الحصن والفناء المطـوق بالسـور bailey وهذا هو ما نعرفه على أنه قلعة اقطاعية .

ومرة أخرى تقدم لنا قطعـة قماش بايو Bayeux Topestry معلومة غاية فى الأهمية . ومن خلال هذا العمل الفنى الذى صار تقليديا الى حد ما علمنا مما هو مرسوم ومكتوب على تلك القطعة المصنوعة من القماش كيف استولى الدوق وليم على قلاع دول Dol ، ورينـز Rennes ، ودينانت Dinanl ، وتوقف فى قلعة Bayeaux

وعندما رست سفنه عند الشاطىء الانجليزى ، أمر وليم على الفور باقامة قلعة مشابهة فى هيستنجز Hastings . ويقصد من المنظر الأخير توضيح بناء وتشييد motte — ونعنى بذلك هضبة صغيرة صناعية ومزودة بخط دفاعى مؤلف من قضبان مغـــروزة على نحو متلاصق . وتقدم المناظر السابقة تفاصيل اضافية عن القلعة المعاصرة ، وبخاصـــة الجسر المتحرك الذى يمر فوق خنـــــدق مائى محفور حـــول الحصن moat ، الى بوابة فى الخط الدفاعى المؤلف من قضـــبان حديدية مغروزة على نحو متلاصق stockade ، وفى داخـــل ذلك الخط الدفاعى يوجد برج خشبى عال أو حصن . وفى كل حالة تجعلنا قطعة القماش تلك نتصور سور القصر والقلعة ، والفناء الواسع المطوق بالسور والذى كانت تحميه أيضا خندق مائى محفور حول الحصن ، وجســـر متحرك ، وخط دفاعى مؤلف من قضبان مغروزة على نحو متلاصق ، وهى التى تحيط بثكنات لا غنى عنها ، واسطبلات ، ومخازن للحبوب . وأثناء مهجامة سور القلعة ، والذى يعتبر خط الدفاع الأول فان المدافعين يمكن لهم الانسحاب الى الحصن الرئيسى ، وذلك اذا دعت الضرورة ، حيث يمثل الحصن الرئيسى خط الاستحكامات وما به من القلعة المركزية ، ذلك لأن الهدف الأساسى للحصن هو سد الحاجات العسكرية ، ويمثـــل أيضا محل الاقامة الدائم لرئيس القلعة . ويعيش رئيس القلعة وأسرته فى الطابق العلوى ، حيث ينقسم الى صالة كبرى ، وكنيسة صغيرة ، وعدد من الغرف . وقد تم تخصيص سطح المبنى أو حجرة تحت السقف الأعلى مباشرة garret للمراقبة والرشق بالقذائف . وفى الطابق الأول يتم الاحتفاظ بالأسلحة ويقيم به الجنـــود الذين يتولون حراســة المدخل . ويحتوى الطابق المقام تحت سطح الأرض على بئر وغـــرف لتخزين الطعام برغم أن طهى الطعام كان يتم فى العادة فى مطبخ مقام فوق سطح الأرض .

وهكذا تعكس القلعة ذات السور والحصن المنيع the motte-and bailey castle أصولها الاقطاعية . وعلى الرغم من أن مثل ذلك الحصن يمكن أن يكون ملاذا لعدد كبير من الطالبين للحماية من الاتباع

(الاقطاع)

بصفة مستمرة ـ ونعنى بذلك محاربين محترفين . وهناك اعتقاد بأن دفاعات هذا النمط كانت ضرورية جدا للنظام الاقطاعى لدرجة أن امتداد النظام الثانى يمكن ارجاعه الى بقايا النظام الأول . فعلى سبيل المثال تميز نجاح النورمان Normans فى الجزر البريطانية British Isles فى اقامة مالا يقل عن خمسمائة قلعة ذات سور ـ وحصن منيع motte-and-bailey castles . واختلفت الخطط الفردية الى حد ما من مكان الى آخر . وكلما أمكن عمل الغزاة على توفير الوقت والجهد وذلك بدمج بقايا التحصينات السابقة أو باللجوء الى المرتفعات الطبيعية لاستخدامها كهضبة منيعة باقامة حصن منيع فوقها a motte . ومع ذلك فان الشكل الأصلى للقلعة ظل كما هو الى حد كبير فى كل بلد اقطاعى وظل دون تغيير بعد أن تم استخدام الخشب الأصلى بدلا من الأحجار . ومازال الأدب القصصى الرومانسى يعزز فكرة أن القلعة كان لابد أن تكون عبارة عن ـ بناء ضخم . والواقع أن بعض الحصون كانت نادرة حتى أواخر القرن الثانى عشر لميلاد وأن الحصون بعد ذلك كان مجرد صورة مطابقة للمبانى الخشبية القديمة ـ الأبراج المستطيلة التى قامت بالاضافة الى الجدران المحيطة . ومن الناحية الواقعية يمكن أننسب الحصن المسدير والقلعة المتكاملة والتى بها أجزاء ناتئة مستديرة with rounded bastions ، الى الفترة ما بعد ١٢٠٠م .

وسائل اللهو والتسلية عند النبيل الاقطاعى :

على أية حال امتلك كل نبيل اقطاعى قلعة ، ولا يتوقع الفرسان العاديون والأتباع الاقطاعيون الصغار فى قاع النظام الدرجى أكثر من بيوت مالك العزبة المحصنة والمحاطة بحاجز . من قضبان حديدية . والواقع أن كثيرا من الشخصيات الكبرى تعيش بنفس المنوال بل ان معظم كبار الملاك يقضون جزءا كبيرا من كل عام وسط أراضيهم الزراعية وممتلكاتهم بها . وبالطبع لم يكن السبب فى أنهم يبتهجون بالمراقبة الزراعية ، وانما فى أن معظم دخلهم يتكون من الانتاج والمحصول الذى كان من السهل استهلاكه بدلا من نقله . ومع وجود النظام الاقتصادى التقليدى فى أوائل العصور الوسطى كانت الزراعة وسيلة ضرورية للبقاء

والعيش أكثر من مجرد عمل مربح . وتم ترك تنفيذ الطريقة المألوفة الى الوكلاء الاقطاعيين stewards المحليين أو وكلاء المزارع bailiffs . وبقدر الاهتمام بالادارة المحلية فما هو عمل الزوجة لتشغل وقتها ؟ وبعبارة أخرى اعتقد النبيل الاقطاعى فى تحقيق المستوى البربرى للطبقة الاستقراطية . وكانت المهمة الحقيقية للنبيل الاقطاعى هى خوض المعارك . وفى الفترات التى تقع بين الحملات الحربية يمارس النبيل الاقطاعى الصيد ، والاحتفالات ، واقامة الولائم ، ومعاقرة الخمر ، والمقامرة ، ومغازلة النساء ومضاجعتهن . ومع ذلك فانه يصبح مصابا بالضجر بشدة من وجود حالة السلام ان عاجلا أو آجلا . ثم لا يمكن له أن يفعل أكثر من امتطاء فرسه للمشاركة فى مسابقة الفرسان فى العصور الوسطى .

وكانت تلك الوسيلة الرياضية المفضلة التى تمارسها الطبقة الارستقراطية معركة بكل معنى الكلمة فى الأصل ما عدا أنها كانت يتم الاعلان عنها رسميا وتدور رحاها وفقا لقواعد معينة متفق عليها سلفا . وتحت رعاية أحد كبار الاقطاعيين الذين يتصفون بالشهامة والفروسية - مع وجود عدد من الذين يتعهدون بالكفالة والضمان مع الشخصيات القوية - يتم تحديد يوم للمواجهة بين مجموعتين من الفرسان ، وغالبا ما مثلت المجموعتان أسرتين متنافستين أو مكانيين مختلفين .

ويقوم المتنافسون بصف مطاياهم على كلا جانبى ساحة المبارزة بعد ارتدائهم ملابس حربية كاملة الدروع ويبدأون الهجوم بمجرد اعطائهم اشارة البدء . وبعد أن تنكسر الحراب تستمر المعركة بالسيوف الى أن يندحر أحد الفريقين أو تتعطل فعالية أسلحته . وغنى عن القول ، فهى مباراة محفوفة بالمخاطرة ، حيث يتم سفك الدماء وازهاق الأرواح . غير أن هناك ما يحقق شرفا عظيما بالاضافة الى الحصول على غنيمة ، ذلك لأن المنتصر فى استطاعته المطالبة بالفرس وأسلحة الخصم المهزوم مالم يدفع الأخير فدية مالية عنهم . وغالبا ما كان هذا النوع من القتال العام والمبارزة الحقيقية بين الفرسان ، وبمرور الوقت أصبحت تلك

المقارعات بالسيف jousts ، كما كانوا يطلقون عليها ، شعبية ، وعملية مظهرية شيئا فشيئا • ومع ذلك فبعد مرور كثير من الوقت ، انخفضت تلك المبارزات الى أن صارت مجرد مهرجانات pageants لقد كان رجال عصر الاقطاع يقاتلون لمجــــرد حبهم للقتــــال ، وليس - بأسلحة غير حادة - لحبهم للنساء •

الفصـــل الخامس

الاقطاع والدولة الاقطاعية

طبيعة الدولة الاقطاعية :

كثير ما تم التأكيد على أن الاقطاع مدمر من الناحية السياسية وأنه بالضرورة يؤدى الى تفسخ الدولة وانحلالها . ويبدو أن هذا الرأى يعبر عن وجهة نظـــر المؤرخين الذين قصروا اهتمامهم على الامبراطورية الكارولنجية the Carolingian Empire ، والممالك الكبـــرى التى تفسخ فيها الاقطاع وتعرض للانحلال . وكما عـــرفنا فان تلك الولايات الكبرى اتجهت نحو الزوال بسبب عوامل الضعف الداخلية وليس لأن حكامها حاولوا السيطرة عليها وفقا لشروط الحيـازة الاقطاعية . واذا ما اتجهنا الى الدوقيات الفرنسية فى القرنين العاشر والحادى عشر ، نحصل على انطباع مختلف تماما . ومن الواضح أنه فى ولاية صغيرة كان الاقطاع غير متعارض مع حكومة على مستوى الكفاية ، وربما نظن أن العامل الحاسم تمثـــل فى التبعية الاقطاعية لأن قوة هـــذا الميثاق الشخصى اعتمد عليه النظام الاقطاعى كله ، والذى كان متأثرا بالأحوال المحلية على نحو حتمى . ولقد أثبتت التجربة أن الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم قد ينجبون أبناء ليسوا على مستوى الكفاية ، ومعنى ذلك أن منح هؤلاء الاتباع اقطاعات لها موارد غنيـــة زراعية وغيرها قد يعطيهم الوسيلة للقيـــام بثورة ناجحة ، وأن ولاء النواب والوكلاء الاقطاعيين والذين يعيشون بعيدا عن سيدهم الاقطاعى لا يمكن التأكيد على ذلك الولاء باجبارهم على تقـــديم فروض ذلك الولاء الاقطاعى .

ووفقا للتراث القديم كان ارتباط الاقطاعى وتابعه مع بعضـــهما البعض برباط الوفاء بالعهد المتبادل ، واذا ما اتضح أن أحدهما خائن وغادر يصبح الآخر لديه المبرر فى اعلانه عدم التمسك بالاتفاق مع ذلك الخائن. واذا لم يحقق التعهد الاقطاعى فائدة لكل من الاقطاعى وتابعه فانه من الممكن الا يقدر له البقاء طويلا . وعندما يكون السيد الاقطاعى ضعيفا

أو يعيش بعيدا جدا عن تابعه الاقطاعى فان الأخير يكون أمامه كل مبرر لتحدى سلطة سيده .

وكذلك يمكن لنا أن نستنتج أن الدولة الاقطاعية والتى تعتمد حكومتها على الحيازة الاقطاعية الى حد كبير لابد لها أن تكون صغيرة لأن مثل تلك الحيازة تقتضى ضمنا وجود علاقة شخصية حميمة بين الاقطاعى وأتباعه غير أن الحدود الاقليمية ليست الموضوع الوحيد الذى يجب أن يوضع فى الاعتبار ذلك لأن التراث السياسى للريف له أهمية مساوية . ولكى نأخذ مثالا مألوفا ، دعونا نأخذ بعين الاعتبار ممتلكات هنرى الثانى الأنجوى the Angevin Henry II ، والتى كانت بطريقة أو بأخرى تشتمل على الجزر البريطانية the British Isles ونورماندى Normandy ، وأكويتين Aquitaine ، وأنجو Anjou ، وبريتانى Brittany . والأقاليم الأربعة الأخيرة كانت فى حوزته باعتباره تابعا اقطاعيا لملك فرنسا . وكان هنرى الثانى نفسه دوقا لأقليم نورماندى ، ودوقا لاقليم أكوتيين ، وكونتا لاقليم أنجو Anjou ، وكونتيه بريتانى ، كانت فى حوزة ابنه جيوفرى Geoffrey . وبالطبع كان هنرى الثانى ملكا على انجلترا . وبالاضافة الى ذلك كان معترفا به كسيد اقطاعى من قبل رؤساء الأقاليم فى أيرلند Irish chiefs ، وأمراء ويلز Welsh princes والنورمان Normans ، الذين استولوا على أجزاء من أيرلند Ireland ، وويلز Wales وكذلك ملك الاسكتلنديين . وبرغم أنها غالبا ما أطلق عليها خطأ اسم الامبراطورية الأنجوية ، فان هذه المجموعة من البلاد كانت الوحدة بينها واهية . بل ان القبول العام فى كل مكان منهم بالنسبة للعرف الاقطاعى خاليا من المعنى من الناحية العملية ، ذلك لأننا ليس فى استطاعتنا استنتاج قوة هنرى الفعلية فى اقليم معين من حقيقة أنه يسيطر على ذلك الاقليم كاقطاعه له أكثر من مجرد سيادة كاملة ، أو من الناحية الحقيقية كان ذلك الاقليم فى حوزته عن طريق تابع اقطاعى . وفى كل حالة يجب علينا أن نعرف ما هى الحقوق التى تمتع بها الأطراف فى القادة وفى اى حد استمرت تلك

الحقوق توضع موضع التنفيذ . ولكى ندرك كيفية سير الأمور بالنسبة للاقطاع يجب علينا أن ننظر الى الخارج الخاص بالدول المستقلة .

فرنســا :

بقدر اهتمامنا بفرنسا فى القــرن الحادى عشر الميلادى لنـا ألا نهتم بالسلطة الملكية تماما . ان مملكة الفرنجة فى الغرب لم تكن أكثر من بديل سياسى مؤقت كانت فى ذلك الحين قد وصلت الى حد الانحلال . ولا يمكن أن يدرك المرء بسهولة عملية اعادة البناء الرائعة التى قامت بها الحكومة الملكية فى أواخر عهد أسرة كابيه Capetians . وعلى العكس من ذلك فان عهد فيليب الأول Philip I (١٠٦٠ - ١١٠٨م) الملطخ بالعار والشنار عمل على محو الشرف الضـئيل الذى كان معلقا بالمنصب الملكى . وفيما مضى انتقلت الحقوق القديمة للتاج الى الرجال الذين كانوا على مستوى المقدرة والكفاية بسلطة شرعية أو بدون سلطة شرعية ، لتنظيم اقليم محلى والدفاع عنــه . وعلى الرغم من أنه فى الامكان تسمية ذلك النوع من الاقليم على أنه اقطاعة ملكية فان سـلوك الحائز على الاقطاعة يكذب ذلك ويتناقض معه . ولم يحاول أى تابع اقطاعى مزعوم الاقتراب من قصر الملك ، سواء لتقديم فروض الولاء الاقطاعى أو تأدية أية خدمة أخرى . وماهو الاحترام الذى يكنونه لسيد اقطاعى نظرى ، ويمكن أن يتحداه الموطنون التابعون له فى أراضيه ؟ ومن الواضح أن فرنسا لم تعد دولة بكل ما حوت هذه الكلمة من معنى . ففى الواقع انقسمت فرنسا الى عدد من الامارات حيث قام حكام تلك الامارات بممارسة سلطة ملكية .

الدوقيـات الفرنسـية :

ان التطور الباكر للدوقيات الفرنسية مازال يكتنفه الغموض بسبب الافتقار للمصادر التاريخية المعاصرة ، غير أنه فى استطاعتنا التأكـد من بعض الحقائق المهمة على الأقل . وكان أمرا نمطيا بالنسبة للعصر أن قام شارل الأصلع Charles the Bald باقامة ثلاث مقاطعات تحت قيادة مستقلة للدفاع عن الحدود الشـمالية والتى تحـولت الى امارات

وراثية ؛ احداهما عرفت باسم كونتية فلاندرز the country of Flanders والأخرى عرفت باسم دوقية بورجوندر the duchy of Burgundy أما المقاطعة الثالثة فكانت منطقة الحدود فى توستريا the march of Neustria التى أصبحت مملوكة ملكية تامة للملك عندما حصل حكامها على اللقب الملكى الدائم لفرنسا بدءا من هوج كابيه Hugh Capet . ومع ذلك ، ففى غضون ذلك الوقت تقلص نفوذ ملوك أسرة كابيه وصار قاصرا على ما يطلق عليه جزيرة فرنسا The Ile de France لأن كلا من كونتات أونجو Anjou وبلوا Blois ، وكامبين Champagne قد جعلوا أنفسهم مستقلين من الناحية الواقعية ، وتم الاعتراف عرفيا بالغزوات النورمانية على امتداد بحر المانش the Channel باعتبارها دوقية مستقلة . على أن حالة الامارة الأخيرة كانت مثيرة للاهتمام بصفة خاصة . ولا ريب أن الغزاة الفايكنج Viking Invaders فى القرن التاسع الميلادى كانوا يجهلون تماما العرف الاقطاعى . واذا كان أحفادهم قد تمكنوا من اقامة دوقية a duchy فان ذلك كان مبنيا على ذلك العرف الاقطاعى ، ولابد أن ذلك كان بفضل المعرفة التى اكتسبوها فى فرنسا .

الفلاندر :

وفى اقليم الفلاندر Flanders تمكن النورمان من الحصول على نموذج مفيد بكل وضوح . ذلك لأن كل السلطات التى كانت تحت قبضة الملك هناك من قبل قد انتقلت جميعها الى يدى الكونت . فمن بين الأتباع الملكيين العديدين الذين تفرقوا فى كل أنحاء الأراضى الفلمنكية the Flemish territory ظل الكونت هناك كما هو . لقد نقل الآخرون ولاءهم اليه ، ليعملوا كنواب لأسرته ، وكموظفين للادارة المحلية ، وكأساقفة للكنائس أو كفرسان فى جيشه . واستطاع الكونت حشد كل قادر على حمل السلاح للدفاع بالاضافة الى فرق الفرسان التى كانت تحت سيطرة أتباعه الاقطاعيين باعتباره القائد الأعلى العسكرى لاقليم الفلاندر . وسيطرت الاستحكامات العسكرية على كل الطرق المهمة والقنوات المائية والتى كانت له حقوق كبرى عليها من

ناحية حق الزام الآخرين بالعمل عن طريق السـخرة ، وحق مصادرة ادوات والمواد اللازمة . ولا يمكن أن تقام أى قلعة بدون اذن وتصريح منه كما لا يمكن الاحتفاظ بأى قلعة بما يتعارض مع أوامره . وعلاوة على ذلك أعلن الكونت نفسه وصيا على السلام العام . وكانت القضايا العادية يتم الفصل فيها فى محاكم أتباعه . وكانت كـل الكنائس تحت حمايته الخاصة ، أما الاديرة فقد أشرف عليها وقدم لها المساعدة . وفى نطاق مجال النشاط الاقتصادى قام الكونت أو من يعينهم بسك العملة ، وتنظيم التجارة ، وجبى الضرائب غير المباشرة . ولا نعلم متى وكيف قرر الكونت ممارسة تلك المهام المتعددة للحكومة . ومع ذلك فربما نكون على يقين عندما نقـول أن تلك المهام تم نقلها عن الحقوق الملكيـة والامتيازات الخاصة بالدولة الكارولنجية the Carolingian regalia . والواقع أن اقليم فلاندر كان مملكة مصـغرة لأن حاكمه كان قادرا على وضع تلك الحقوق موضع التنفيذ كما سلمها شارل الأصـلع Charles the Bald وخلفاؤه برغم أن هذا الكونت لم يضع التاج على رأسه .

وكان حتميا أن وضع القرارات موضع التنفيذ شكل مشكلة خطيرة، وبالنسبة لاقليم فلاندر تم معالجة هذا الأمر من خلال التنظيم المحلى كما اجريت عليه تحسينات خلال القـرن العاشر . ولأسـباب مدنية وعسكرية تم تقسيم الكونتية الى اقطاعات Châtellenies ـ كانت قائمة حول القلاع مثل ما حـدث فى جينت Ghent ، وبـروج Bruges ، ويوبرى Ypres ، وسانت أومير Saint-Omer وليـلى Lille ، وأراس Arras . وتولى ادارة كل منطقة من تلك المناطق شخص أطلق عليه آمر القلعة أو محافظها Châtelain وعمل فى كل الأحوال كنائب للكونت ولهذا السبب عـرف فى غالب الأحوال باسم الفيكونت Vicomte . ومن ثم كان يسـيطر على الحامية العسكرية المكونة من الفرسان الذين أرسلتهم الاقطاعات المحيطة وعلى آمر القلعة أن يتأكد من أن القلعة بها ما يكفى من مخزون الطعام، والمواد الضرورية الأخرى . وفى حالة حدوث حرب على هذا الفيكونت تولى مسئولية استدعاء القوات الموجودة فى نطاق الاقطاعة ، ويقوم

بتوجيه تحركاتهم . ومن قبيل العمـــل اليومى المألوف على الفيكونت أيضا أن يشرف على عملية جمع موارد الدخل مهما كانت لصالح الكونت من الاقليم : مثل ضريبة الاقطاع على الأرض المقطعة ، والمبـــالغ التى يفرضها السيد الاقطاعى من حين لآخر ، والمكوس مقابل عبور الطرق أو الجسور ، وما شابه ذلك . وأخيرا يقع على عاتق آمر القلعة الواجب المهم المتعلق بالاشراف على محكمة الاقليم التى تنعقد جلساتهم داخـــل جدران القلعة وذلك لوضع العدل الى نصابه . وعلى الرغم من أن وظيفة آمر القلعة لم تكن وراثية فى بداية الأمر ، فانها صارت وراثية فى العادة بحلول منتصف القرن الثانى عشر . ونظرا لأن الوكلاء الاقطاعيين كانوا يحصلون على مكافآت بمنحهم اقطاعات غنية بالموارد الطبيعية وقريبة من القلاع التى يعملون بها فان منزلتهم ارتفعت بين الطبقة الاقطاعية الارستقراطية . ولو أنهم كانوا من الذين يميلون للعصـيان والتمـرد باستمرار لافتقرت فلاندر لكل الاستقرار السياسى . غير أن بقاء هؤلاء الأتباع فى حالة اخلاص مستمر لم يكن نتيجة لأى نظرية خاصة بالتبعية الاقطاعية ، وانما نتيجة للسيطرة الفعالة للكنت نفسه .

أنجـــو :

وتمدنا أنجو Anjou الواقعة جنوب نورماندى Normandy بمثال دولة اقطاعية مترابطة تحت حكم كل من فولك نيرا **Fulk Nerra** وجيوفرى مارتل Geoffrey Martel (٩٨٧ - ١٠٦٠م) ، الذى نال شهرة كبيرة . وكانت تلك الكونتية تحميها أيضا القـــلاع وتحكمها - من بين تلك القلاع التى كان لها أبراج من الصخور - وكانت تحت رعاية الأتباع الاقطاعيين المهمين بصفة مستمرة . وكان رؤساء القلاع يدينون بالولاء التام فى العادة لسيدهم الاقطاعى كما كان الحال فى اقليم فلاندر . وبعد أن انتهى القرن الحادى عشر ســمح النزاع على الوراثة للكثيرين بالخروج على طاعة سادتهم الاقطاعيين الى أن عادت سلطة الكونت وصارت موضع تنفيذ بكل صرامة وشدة ، وذلك فى عهد جوفرى بلانتا جنيت Geoffrey Plantagent (١١٢٩ - ١١٥١م) . ومن قراءة الكتب القيمة العديدة يمكن للمرء افتراض أن الاقطاع لم يكن

سوى شكل من أشكال الفوضى السياسية والاجتماعية ، بيد أن الفوضى الاقطاعية لم تكن دائمة أو عامة فى فرنسا فى القـــرن الحادى عشر . وكانت أكوتيين Aquitaine اتحادا لعدة ولايات موحدة الى حد ما مع تمتع تلك الأقاليم بحرية نسبية فى الحركة أكثر من مجرد اقليم واحد . وكان تاريخ تولوز Toulouse مملؤا بالتمـرد والاضطرابات طوال العصور الوسطى . ولم يصل مستوى القوة السياســية فى كل من بلوا Blois ، وشـــامبين Champagne ، مثلما كانت القوة السياسية فى اقليمى فلاندر وأنچو . ومع ذلك لم يقاسى اقليم واحـــد من تلك الأقاليم من الفوضى التى ميـزت دوقيـــة بورجوندى Burgundy التى سيطر عليها جماعة من البارونات barons المحليين ، وذلك فى غيبة كل السيطرة الدوقية . وقد انتشرت أحوال مشابهة فى بريتانى Brittany ، وفى أى مكان آخر ، لم يعد فيه الحاكم النظرى قادرا على السيطرة - وحتى فى الأراضى الملكية قبل اعتـــلاء لويس السادس Louis VI القوى كرسى العرش .

نورماندى :

وتظهر الفائدة العظيمة التى جناها النورمان Normandy مـــن جيرانهم من المبانى التى شيدوها فى أواخر القرن الحادى عشر . ومن المعروف جيدا أن انجلترا فى عهـــد وليم الفاتح ، وأبنائه (١٠٦٦ - ١١٣٥م) لم تكن أقوى بلد فى غرب أوربا فحسب ، وانما كانت أكثـــر أخذا بالنظام الاقطاعى . وكلما درسنا عن الحكومة فى أوائل قيام اقليم نورماندى كلما كان من الأفضل لنا أن نتفهم خصائص الاقطاع الانجليزى الذى كان مميزا كما قيل عنه فى أغلب الأحوال . وساعدت حقيقة أن دوقية وليم ومملكته أيضا كانت أراضى تمت السيطرة عليها بالقوة على تفسير سبب كون عادات وتقاليد ونظم النورمان كانت الى حد ما أكثر تماثلا عن الحالة التى كانت موجودة فى معظم الأقاليم الفرنسية . وعلى سبيل المثال ، ففى كل أنحاء اقليم نورماندى Normandy ، يبدو أن استبدال حيازة الأراضى وفقا للنظام الاقطاعى بأشكال أخرى من الملكية للأراضى الزراعية كان كاملا على نحو ملحوظ ، وأن تحديد الالتزامات

الاقطاعية بالنسبة لحصص الفرسان كان دقيقا وبخاصة فى أوائل العهد النورماندى ٠ ومع ذلك كانت الحقوق الدوقية نفسها تقريبا كتلك التى تمتع بها كونت اقليم فلاندر Flanders بصفة عامة ٠ قام الدوق بتعيين الأساقفة ، وقدموا اليه فروض التبعية الاقطاعية ، وتصرف معهم على أساس أنه حاميهم العلمانى ٠ وفيما عدا سلطته الخاصة لا يملك أحد فى نورماندى حق بناء قلعة ، أو سك عملة أو تنظيم تجارة بحرية ، أو عقد محاكمات فى الأمور القضائية الأكثر أهمية ٠ وكان اللجوء الى الحرب من الناحية العرفية - باعتباره مختلفا عن اقامة الدعاوى العرفية للاقطاعات المحلية - حكرا على الدوق ، الذى كان فى استطاعته ستدعاء كل الرجال القادرين على حمل السلاح فى وقت الحاجة ، فى كل أنحاء الدوقية عن طريق اعلان حالة التعبئة العامة ٠ وأخيرا فان سلطته كانت موضع التنفيذ من خلال موظفين يطلق عليهم نواب الكونت viscounts فى اقليم الفلاندر Flanders ، على الرغم من أنهم كانوا فى الحقيقة وكلاء للدوق - وأتباع اقطاعيين مشهورين الذين يتولون الاشراف على قلاع الدوق ، وكانوا يعملون كنواب للادارة العسكرية ، والقضائية ، والمالية فى الأقاليم المحلية ٠

تحول انجلترا للنظام الاقطاعى :

لم يكن الاقطاع معروفا فى انجلترا قبل الفتح النورمانى وفقا للتعريف الدقيق للاقطاع الذى ورد فى فصل سابق ٠ وفى الحقيقة كان الأنجلو ساكسون the Anglo-Saxons على معرفة بمنح الحصانة بالاشكال المختلفة لملكية الأراضى المشروطة ، وسلطة السيادة الاقطاعية الشخصية ، بيد أنهم لم يعملوا على تنمية وجود طبقة من الفرسان المحترفين أو وجود خطة لمكافأة الأتباع الاقطاعيين عن طريق منح الاقطاعات الحربية ٠ واذا ما أسقطنا من الحساب هؤلاء القلة من المغامرين النورمان الذين استمالهم ادوارد المعترف Edward the Confessor يعود الفضل الى الدوق وليم وأتباعه الذين أوجدوا فى بريطانيا نظام الحيازة الاقطاعية ، والحرب الاقطاعية ، والقلاع الاقطاعية ، والعرف الاقطاعى بصفة عامة ٠ ومن ثم تحولت انجلترا الى

دولة اقطاعية اقتداء بما حدث فى دوقية النرماندى والسبب لهذا التحول واضحا . واستبدل وليم الفاتح ما اعتبره أفضل أشكال التنظيم السياسى بالشىء الذى كان قد أثبت عدم فعاليته . وعلى الرغم من أن وليم الفاتح حافظ على النظم والتقاليد القومية والتى اعتقد بأنها من الممكن أن تكون مفيدة ، فانها كانت تتفق مع بناء اقطاعى جوهرى وجديد . وعلى أية يبدو أن الاقطاع بالنسبة اليه كان متناغما ومنسجما تماما مع حكومة قوية - وهو رأى يوجد له ما يبرره بكل تأكيـــد فى تاريخ المملكة فى القرنين التاليين على حكم وليم الفاتح .

وأقام الغزو النورمانى المبدأ الأساسى القانونى بأن كل قطعة أرض فى انجلترا كانت قد منحت منه الى أتبـــاعه كاقطاعة مقابل التزامات الفروسية ، أو مقابل الرقابة وضبط النظام ، أو فى شكل صدقات دون قيد ، هذا بخلاف الأراضى التى ظلت فى حوزة الملك .

وكنتيجة لذلك أصبحت الطبقة الحاكمة فى المملكة طبقة استقراطية اقطاعية ، والتى كانت من الفرنسيين النورمان جميعا تقريبا . والذين فى حوزتهم الاقطاعات التى منحها الملك هم أتباع الملك الاقطاعيين . وكان يطلق عليهم من الناحية العرفية بارونات barons . وبفضل كتاب الاحصاء العام الشهير لأراضى انجلترا ١٠٨٦ famous Domesday inquiest أصبح تحت أيدينا سجلا كاملا عن الذين استأجروا الأرض فى عهد وليم بالاضافة الى وصف تفصيلى لكل أملاكهم وعقاراتهم . وفى نهاية القائمة نجد أسماء الرجال الأقل أهمية نسبيا والذين فى حوزة كل منهم عزبة أو عزبتين فقط ، أما فى قمة القائمة فنجد الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وكبارا العلمانيين ، الذين ظلوا محتفظين بأراضى زراعيـــة كثيرة تحت أيديهم ، بعد أن وزعوا أراضى كثيرة على أتباعهم . وكان معظم هؤلاء البارونات وكبار الكهنة ملزمين بتقديم أعداد محددة من الفرسان الى الملك مقابل الاقطاعات التى فى أيديهم بعد الفتح النورمانى مباشرة . بيد أن المنح الاقطاعية يمكن أيضا أن تتم لمكافأة الشخصيات التى قدمت خدمات للملك أيضا بأساليب أخـــرى ، وبخاصـــة كبـــار الشخصيات فى أعضاء الأسرة الحاكمة . وتوجـــد وثيقة مشـــهورة منذ

أوائل عهد **ستيفن** Stephen (١١٣٥ ـ ١١٥٤ م) والتى توضح أن قلب القصر الملكى كان يتكون من مجموعة من الموظفين الذين كرسوا حياتهم للخدمة داخل القصر والذين حصلوا على اقطاعات مقابل عملهم. وبالاضافة الى ذلك تحكى تلك الوثيقة التاريخية لنا بأن الملك كان يسمح لأصحاب المناصب التالية : المستشار ، أمين خزانة القصر ، والمسئول الأول عن تدبير أمور القصر ، وكبير الخدم ، ومدير لأمن بأن يحصلوا على وجبات طعام بانتظام على نفقة الملك ، بالاضافة الى المؤن الغذائية من خبز ونبيذ ، وشموع ، والتى من الممكن لهم حملها معهم الى محل اقامتهم .

سياسة وليم :

اتبع وليم الفاتح حادثة نورمانية مماثلة لحماية حدود دولته وذلك بأن عهد الى أتباعه لاقطاعيين الأقوياء بهذه المهمة وهم الذين أطلق عليهم كونتات Counts . وعلى سبيل المثال أقام ثلاثة كونتات على حدود اقليم ويلز Welsh border ـ وأطلق عليهم ايرلات earls وفقا للغة الانجليزية المحلية ـ وفوضهم بسلطات كثيرة من أجل حماية الاقاليم التى حول شستر Chester ، شروزبرى Shrewsbury ، وهيرفور Hereford . وعلى الرغم من أن لمقاطعات من هذا النوع بقيت استثنائية فى انجلترا ، فان الكثير من الاقطاعات الأخرى منحها وليم الحق فى اقامة القلاع وكان الملك ينظر اليها على أنها وحدات للدفاع عن مملكته . والواقع أنه وفقا للعرف الاقطاعى المعترف به تمتع كل حائز على اقطاعية بقدر كبير من الباحية القضائية ، وتحقيق الأمن ، والسيطرة الاقطاعية على المزارعين فى عزبته الزراعية ، واذا كان لهذا التابع أتباع من الباطن ، ففى استطاعته دعوتهم الى محكمته من أجل تسوية المنازعات التى تعلق بما فى حوزتهم من الأراضى . وبطريقة أو بأخرى فقد سمح الملك لباروناته وأتباعهم الاقطاعيين بممارسة الأعمال العديدة للحكومة . ومع ذلك اكد وليم الفاتح على حقه فى السيادة العليا فى الحقوق القضائية والعسكرية بكل وضوح فى كل انحاء انجلترا ونورماندى . وكانت قضايا معينة يتم

حفظها لسلطانه القضائى - وتعرف باسم دعاوى قضايا السيف فى نورماندى ، مثل دعاوى قضايا التاج فى انجلترا . وكان على كل حائز على اقطاعة سواء أكان تابعا اقطاعيا مباشرا للملك أم لغيره أن يقوم بأداء قسم الولاء للملك شخصيا لأنه من الممكن شن حرب باسم الملك ، وفى حالة الضرورة للملك دعوة جميع القادرين على حمل السلاح من الرجال للقتال تحت امرة الملك .

ولجأ وليم للوسائل نفسها فى استخدام حقوقه فى كلا البلدين أيضا . وكانت المملكة الانجليزية مقسمة منذ القدم الى أقاليم Shires ويحكم كل اقليم حاكم يعرف باسم شريف Sheriff ، وكان نائب حاكم المحافظة يطلق عليه اسم ايرل earl أ earl dorman ولم يعد الايرلات يمارسون مهاما حكومية بعد الفتح النرمانى باستثناء ما كان يحدث فى بعض المناطق الواقعة على الحدود . ومنذ ذلك الحين كانت معظم الأقاليم التى أطلق عليها لفظ shires تعرف أيضا باسم كونتيات counties ، وكانت تحت قيادة موظفين جدد عينهم الملك وكانوا مسئولين مباشرة أمامه شخصيا ، وفى الوقت الذى أطلق فيه الانجليز على هؤلاء الموظفين لفظ Sheriffs ، أطلق الفرنسيون عليهم لفظ كونتيات Counts ، لأنهم بلا جدال يشابهون الرجال الذين حملوا ذلك اللقب فى القارة الأوربية . وعلى عكس سابقه السكسونى كان الشريف النورمانى أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية الاقطاعية ، وكان بارونا عظيما . ومن الممكن أن تنتقل وظيفته الى ابنه على الرغم من أنها لم تكن وراثية من الناحية الرسمية . وفى نطاق اقليمه كان الشريف Sheriff يقوم مقام الملك من النواحى الحربية، باعتباره الحارس الأمين للملك أو مدير الأمن للقلعة الملكية - وربما يكون قد أشرف على انشاء تلك القلعة . وبالاضافة الى ذلك كان الشريف يرأس محاكمة الكونتية ، ويتولى أمر العناية بالأمور العديدة المتعلقة بالشرطة ، وجمع موارد الدخل المالية ، وتنفيذ أوامر الملك بصفة عامة. ونتيجة لذلك فمن الواضح أنه بعد ١٠٦٦م انضمت الحكومة المحلية بانجلترا الى اتفاق وثيق مع حكومتى نورماندى وفلاندر . على أن مثل

تلك الأمور الفريدة والتى أبرزتها محاكم انجلترا الاقليمية أو النظم المالية الانجليية كانت لها أهمية ضئيلة .

الملك وأتباعه الاقطاعيون :

على كل فرد يرغب فى دراسة التطور الدستورى فى انجلترا أن يدرك منذ الوهلة الأولى أن الاقطاع هو اهتمامه الرئيسى لأنه مهما كان فرع النظم الحضارية الذى يقوم بدراسته فى المملكة النورمانية سنجد أنه اعتمد على علاقة الملك بأتبـــاعه من البارونات . وبالطبع فان الملك يحصل على كل جيشه من الاقطاعات التى فى حوزة أقطاعه – فى شكل معونات اقطاعية ، وضرائب اقطاعية عارضـــة ، وواجبات اقطاعية – وقدرا ضخما من دخله . ينظم الأتباع الاقطاعيون المحـــاكم المركزية ، ويعملون بصفة دائمة كوكلاء للسيد الاقطاعى ، ويتولون تفسير قوانينه وادارة المملكة . وبدون المساندة القوية والنشطة التى قدمها البارونات barons لم يكن فى استطاعة حكومة وليم الفاتح البقاء والاستمرار ، اذ انه واجه ثورات من حين الى آخر فى كل من انجلترا ونورماندى من قبل الاقليات الرافضة للغزو . بيد أنه كان على قدر كاف من القوة مكنه من اعادة النظام الى نصابه ، ذلك لأن معظم أتباعه الاقطاعيين ظلوا على الولاء المستمر له . وحكم كل من وليم الثانى وهنرى الأول بطريقة فعالة أيضا للأسباب ذكرها نفسها . كانت حالة الفوضى فى عهد ستيفن Stephen نتيجة منطقية لعدم صلاحية ذلك الملك فى ادارة البلاد وحكمها . وأخيرا كان هنرى الثانى قادرا على العمل من جديد وفقا لنظام جده وليم الفاتح ووفقا لقاعدة تلك الحركة الرامية الى احياء ما كان موجودا فى عهد جده اذ انه ظل يحمل صفات الشهرة .

استرداد الامارة الكابية :

وفى الوقت نفسه بدأت فى فرنسا حركة الأحياء العظيمة للملكية فى عهد لويس السادس (١١٠٨ – ١١٣٧م) . وكان يبـــدو له بكل وضوح أن واجبه الأول هو أن يحكم سيطرته على كل أراضى مملكته . وعند اعتلائه لعــــرش الامارة الكابية the capetian principalty

مثل مملكة الفرنجة نفسها لم تكن تزيد عن كنها تراث قديم ، ومثلما فعل البارونات الكبار قلدهم الاتباع الاقطاعيون الأصغر التابعين للملك فى جزيرة فرنسا the Ile de France ، وما حولها بصفة عامة فى عدم الاهتمام بالملك والعمل على تحديه . ومن كل النواحى تصرف حكام الأقاليم وحكام القلاع التابعين للملك وفق هواهم ومصالحهم ، واغتصبوا صلاحياته لصالحهم وأستولوا على موارد الدولة ، ورفضوا السماح للملك بدخوله قلاعه . واستطاع لويس السادس السمين وان كان نشيطا فى معالجة الموقف واستحدث لويس السادس عددا من الكهنة والاتباع المحليين لتأييده وتوجه لاخضاع المنشقين بالقوة بعد أن حشد جيشا صغيرا . ونتيجة لذلك حاقت الهزيمة بالمنشقين ، وسقطت القلاع فى أيدى الجيش الملكى وقام الملك بتعيين حكام جدد محل المنشقين وسلم لويس السادس الى خلفائه دولة اقطاعية منظمة تنظيما قويا – وهى النواة الصلبة لمملكة فرنسا التى بنوها بالاستيلاء على الامارات المجاورة رويدا رويدا . واذا ما أخذنا فى الاعتبار وجهة النظر هذه كان الاقطاع ينظر اليه بالنسبة للفرنسيين والانجليز على أنه أساسى فى تكين الشخصية .

الاقطاع فى المانيا وايطاليا :

ابان القرنين العاشر والحادى عشر انقسمت مملكة الفرنجة الغربية the West Franks الى سلسلة من الولايات المحلية ، هذا فى الوقت الذى حققت فيه مملكة الفرنجة الشرقية the East Franks تماسكا متزايدا أوقف الملوك من البيت السكسونى الفرنجى ميل الدوقيات الجرمانية من أن تصبح امارت اقطاعية على غرار ما يحدث فى فرنسا ونجحوا فى وضع مبدأ أن يتولى الدوق وظيفته وفقا للمشيئة المالكة ، وليس من خلال الاقطاعة المروثة . واحتفظ الملك بحق أن يكون له اتباع اقطاعيين تابعين له مباشرة فى نطاق كل دوقية – وبخاصة كبار رجال الكهنة الذين كانت سلطتهم توازن دائما تلك التى يتمتع بها اصحاب رتبة البارونية العلمانية . وبطرق عديدة مختلفة حاول حكام المانيا لمحافظة على التراث الكارولنجى the Carollingian tradition لحكومة ملكية اتسمت بالعظمة والجلال grandiose monarchy.

بل انهم عملوا على اعادة اســتخدام اللقب الامبراطورى وبذلوا جهودا مضنية وشجاعة ليحكــموا المناطق الواقعة على جانبى جبــال الألب . بيد أن تلك المهمـــة كانت مستعصية التنفيـــذ . وأصبحت الامبراطورية الرومانية المقدسة مجرد شكل صورى ، وحيث أن الصراع الذى طال مداه بين السلطة الملكية والأمراء ، انتهى الى . انتصــار الأمراء نصرا كاملا فان المانيا تحولت الى مجموعة من الامارات اقطاعية كما حدث للسلطة الفرنسية فى أوائل عهدها . وعلى الرغم من أن ذروة هذا التطور حدثت فى . أواخر العصور الوسطى ، فان الأراضى ا لألمانية كانت قد خضعت للنظام الاقطاعى قبل نهاية القرن الثانى عشر لميلادى. ومن أراضى الراين Rhinelands الى الحدود السلافية Slavic frontier تكونت الجيوش من الفرسان ، وكانت الأراضى الزراعية بها الكثير من القلاع ذات الأسوار ، والأشجار الكثيفة الضخمة المحيطة بها هنا وهناك وكانت الحكومة تدبر أمورها وفقا لنظام الحيازة الاقطاعية .

ومن الملاحظ أنه بالنسبة لحالة المانيا لم تكن هناك أراضى ملكية يمكنها القيام بدور نواه nucleus لحــكومة ملكية يمكن اعــادة تشييدها . وحاول خلفاء أوتو الأول Otto I من الملـــوك الرومان ازدراء امكانية كونهم أدواق من السكسون Saxon ، أو الفرانجيين Franconian أو الســوبيين Suabian وتقلصت الملكية الى نوع من الزخرف والزينة يحملها مرة أمير محلى ثم يحملها شخص آخر . وتحت ظروف كهذه يمكن فهم أسباب عدم تحول الاقطاع الى ميزة للتاج مثلما حدث فى فرنسا . أن الأجــزاء الأخــرى من الممالك المــكونة للامبراطورية الرومانية المقدسة مثل بورجوندى Burgundy ، وايطاليا كانت أقل تماسكا . وبالنسبة للتطبيق العملى للاقطاع فى تلك الأقاليم فيجب على المرء أن يدرس أيضا أحال التنظيمات السياسية التى عمل الأتباع الاقطاعيون للملك على تحسين أحوالها . وعلى العكس من ذلك ففى جنوب ايطاليا ، كانت مملكة صقلية فى القرن الثانى عشر قوية ومتماسكة مثلما كان انجلترا المعاصرة لها . وبالطبع كان السبب أن كلا البلدين فتحهما النورمان Normans المقتدرون الذين كانو قادرين

على اقامة حكومات قوية عن طـــريق دمج عاداتهم الاقطاعية بالنظم والعادات والتقاليد المحلية التى وجدوها نافعة ومفيدة · ومن ثم فمملكة صقلية مدينة بالكثير للاغريق والعرب الذين كانوا يحكمون صقلية قبـل غزو النورمان لها ، ومع ذلك فقد كان لها نظامها الحربى بالاضافة الى المقومات الأخرى لنظامها الادارى المركزى الذى كان مبنيا على نظام الحيازة الاقطاعية بكل قوة واحكام ·

الاقطاع فى أراضى الحدود فى أوربا :

ومن الممكن التعرف على أمثلة اضافية لممارسة النظام الاقطاعى باعداد كبيرة على امتداد حدود البلاد التى سبق ذكرها ـ مثلما حدث فى اسبانيا ، والجزر البريطانية ، واسكندنيفيا ، وممالك أوربا الشرقية · ولكى نتجنب السرد الممل ، فالأمر يحتاج الى ملاحظة أنه فى كل تلك الأقاليم كان الاقطاع يتم الأخذ به كوسيلة للتكامل السياسى · ومن خلال اقامة الروابط الاقطاعية حاول الملوك الألمان باستمرار مد سيطرتهم على الحكام أنصاف المتمدنين فى أقاليم الحدود · وعلى الرغم من أن أولئك الحكام كانت لديهم كراهية للحكم الالمانى فانهم ساروا وفق طرق مشابهة من أجل تقوية سلطتهم على رعاياهم · وكانت الاعتبارات نفسها تتحكم فى العلاقات المعقدة للملوك الانجليز وجيرانهم فى سـكتلندا ، وويلز ، وايرلند ، ومن كل جانب فان تقديم الحيازة الاقطاعية أشارت الى تقدم النفوذ النورمانى ، اذا لم يكن الغزو النورمانى · وكذلك أيضا قام كل الأمراء النصارى فى اسبانيا ببناء دويلاتهم الصغرى عن طريق تسجيل اتباع اقطاعيين لهم ومنحهم اقطاعات على حســاب المسلمين هناك · وهذه كانت أيضا خطة الامبراطور الكسـيوس Emperor Alexious عندما اجتمع بجيش صليبى فى القسطنطينية ١٠٩٦م · ويرجع عـدم نجاح خطته الى سوء الادارة وليس لأن الخطة لم تكن قابلة لتطبيق ·

الاقطاع فى ســوريا :

غالبا ما ورد ذكر مملكة بيت المقـدس بكـل تحية بصفتها دولة اقطاعية مثالية ـ وهى دولة تم اقامتها وفقا للنظم الاقطاعية الخالصة والتى انخفضت بها السلطة الملكية الى الحد الأدنى · ثم قامت امارات

صليبية ابان احتلال الشواطىء السورية والاعـــلان العام الذى أطلقه الصليبيون بشأن رفض التبعية للامبراطور الكسيوس ، ولم يعترفوا بعد ذلك بقائد اقطاعى عام وتحت الضغط الكهنوتى وافقوا على قبول سيد اقطاعى واحد وفقا لشروط التى وضعوها . وكانت نتيجة الطبيعة هى اعتلاء العرش لملك اسمى a titular king الذين لم يكن فى مقدرته سوى مجرد تنفيذ قرارات أتباعه الاقطاعيين الذين فاقوه قوة . بيد أن الملك لم ينعم بأى مبدأ من مبادىء القيادة الاقطاعية دخـــل تلك الامارات الصليبية ، وبعضها ـ وبخاصة امارة أنطاكية ـ ظلت لفترة طويلة من الزمن وحدات مستقلة . وبأسلوب آخر كانت مملكة بيت المقدس ضعيفة لأن ذلك كان أمرا مقصورا ، وليس لأن الصليبيين كانوا مفتونين بالفكرة لاقطاعية . وأينما قابلنا نظما اقطاعية سواء فى آسيا أو فى أوربا فانها تظهر على أنها مرت بتطور وفقا للاحتياجات الفعلية .

الفصـــل السـادس

تدهـــور الاقطـــاع

تهيئة التجارة والنتائج :

وكما عرفنا فى الفصول السابقة ، ظهرت النظم الاقطاعية فى ظل النظام الزراعى للمجتمع . وبفضل الحيازة لاقطاعية استطاع الحاكم فى اوائل العصور الوسطى الحصـــول على قوة من الفرســـان المدربين ، وحامية من القلاع والنهض بأعباء كل الاحتياجات الادارية بدون تقديم نفقات نقدية . وكانت طبقة أصحاب الاقطاعات تســيطر على الامارة التى تأخذ بالنظام الاقطاعى بحكم الظروف ــ وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى الذين مارسوا سيطرة فعلية على الثروة . وعندما كانت الموا رد المالية الجديدة تتدفق على الاقطاعى كان طبيعيا بالنسبة للأمير الاقطاعى ان نستأجر المقاتلين والموظفين لزيادة سيطرته الشخصية على الجيش والادارة المالية . ومع ذلك فان الطبقـــة الارستقراطية الاقطاعية التى عارضت ذلك بكل تعصب وجدت أنه ان عاجلا أو آجلا ستفقد هيمنتها العسكرية والسياسية .

ولذلك يمكن فهم تدهور الاقطاع وانهياره على أنه مرحلة للثورة الاقتصادية عانت منها أوربا الغربية منـــذ القـــرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر . وفى الفترة الباكرة تقلصت التجارة الى مالا يزيد من التبادل الداخلى للانتاج الفائض ، ولأسباب سنتغاضى عن ذكرها حاليا ، فان التبادل التجارى ظل قائما على نطاق واســـع . وصاحب هذه النهضة زيادة ملحوظة فى تعـداد الســـكان وأينما ازدهر التبادل التجارى تطورت المدن بسرعة خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، ومن النواحى بدأت تظهر ملامح طبقة ســـكان المدن أو الطبقة البورجوازية bourgeoisie وهى التى تحررت من الروابط الاقطاعية ، بالاضافة الى أن ثروتها كانت نقدا . ونظرا لانتشار تأثير النظام الاقتصادى النقدى من لمدن فانه صار ملموسا سريعا فى كــــل جـــزء من طبقة اجتماعية

ومجتمع . بل ان الأساليب الزراعية القديمة فى الزراعة وحياة القرية تستطيع البقاء دون تغيير بيد أنه قبل أن يتأثر النبيل العادى بالتغيرات التى طرأت على النظم الزراعية كان لديه المبرر للاهتمام بالمحافظة على متيازاته السياسية .

التدهور السياسى للأرستقراطية الاقطاعية فى انجلترا :

وبطريق مباشر أو غير مباشر حقق الأمرء الذين امتداد أقاليمهم وسمحت أحوالهم المالية المتحسنة باصدار العديد من التشريعات مما جعل أتباعهم يشعرون بالخطر قبل مضى وقت طويل ، فعلى سبيل المثال أثبت الملك هنرى الثانى (١١٥٤ ـ ١١٨٩م) فى انجلترا أنه كان على قدر فائق من المهارة فى تقوية الادارة الملكية واضعاف السلطة البارونية. وكان هنرى الثانى قادرا على استخدام القوات المرتزقة مرارا وعلى نحو متزايد وذلك عن طريق اغراء مستأجرى أراضيه على أن يدفعوا مبالغ نقدية بدلا من الالتزامات والخدمات التى كانوا يقدمونها . واستحدث ذلك لملك سلسلة من الاصلاحات القضائية تدريجيا ، وكانت النتيجة هى جذب الدعاوى القضائية الى محاكمة وابعادها عن محاكم باروناته. وفى حكومة ذلك الملك المركزية تم استبدال الاتباع الاقطاعيين وفقا للنظام القديم بكهنة محترفين فى ادارة الأبروشيات ، وأحيانا بمجموعة ممن كانوا من أصل بورجوازى . وبعد البحث والتحقيق الذى أجراه ذلك الملك مع حكام الكونتيات Inquest of Sheriffs سنة ١١٧٠م عين رجالا من مستوى مشابه فى تلك الكونتيات ، ووضعت ممارسة السلطة السياسية فى كل الأماكن تحت الاشراف الدقيق بمعرفة قضاة الملك الذين كانوا ينتقلون من مكان الى مكان .

وكانت نتيجة التهديد بالخطر الناجم عن السلطة الملكية المستبدة المتفاقمة فى عهد الملك جنا John صاحب السمعة السيئة حدوث النارونا ١٢١٥م وانتزاع العهد الأعظم Magna Carta من ذلك الملك . بيد أن محاولات البارونات المتتالية لم تتمكن من وضع ذلك الميثاق المشهور موضع التنفيذ كما لم يتمكن هؤلاء البارونات من استرداد هيمنة الطبقة الارستقراطية الاقطاعية . وعلى الرغم من الدستور

الانجليزى الذى ظهر فى عهد ثلاثة ملوك باسم ادوارد (١٢٧٢ - ١٣٧٧م) كان قد تضمن بعض العناصر الاقطاعية ، فانه لم يكن تطورا منطقيا للاقطاع . وبحلول القرن الرابع عشر أحرز القانون العام نصرا حاسما على القانون الذى فرضته المحاكم البارونية قبل ذلك التاريخ . وكانت حكومة الملك لمركزية والاقليمية ثمرة لما ابتكره هنرى الثانى . وعلى الرغم من أن الجيش الانجليزى اشتمل على كثير من الفرسان فانه لم يعد اقطاعيا على الاطلاق . ولا ريب أن كان قوة عسكرية من المرتزقة ، من بينهم نبلاء امتطوا فرسانا بالاضافة الى الأتباع الصغار الرامين بالسهام وهم الذين أدوا الخدمة العسكرية على نفقة الملك . كما كان الدخل الملكى مستقلا عن الخدمات التقليدية مقابل الاقطاعات . وكانت الضريبة العادية المحددة لنسب معينة فى ذلك الحين مفروضة على كل الرجال من أصحاب الاملاك دون اعتبار بالنسبة للحيازة الاقطاعية . وكان الناطقون بلسان الطبقات الارستقراطية المعينة فى البرلمان - وهو ملجس ملكى يتكون من مجلسين تشريعيين يضم البارونات barons . وكان مجلس اللوردات يضم كبار البارونات الذين لهم حق الحضور وكانوا يمثلون طبقة النبلاء بصفة رسمية . ولذلك كانت طبقة النبلاء الانجليزية من أصل برلمانى ، وهكذا كانت الطبقة الحاكمة الانجليزية من أصحاب الأراضى الزراعية فى الكوتيات counties ، وهم الذين حافظوا على ما تبقى من التراث الاقطاعى . يحقق أى مجلس تشريعى فى فرنسا رواها دستوريا وظلت الارستقراطية

فرنسا والقارة الأوربية :

وعلى الرغم من أن التطورات الكثيرة فى انجلترا بشكل عام فلم النبلاء هذه تم تجريدها من سلطتها السياسية فى ذلك الحين . ومنذ عهد الملك فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤م) قام رجال القانون الاقطاعية محتفظة بحالتها تقريبا حتى ثورة ١٧٨٩م . غير أن طبقة البورجوازيون والمحاسبون بادارة الحكومة الملكية الى حد كبير - وهم اعضاء الطبقة الذين مكن تأييدهم المالى الملك المتعاقبين ، ولا سيما لويس الحادى عشر (١٤٦١ - ١٣٨٣م) من التخلص من الآثار الأخيرة للقيد الاقطاعى . وبنهاية العصور الوسطى كانت فرنسا قد أصبحت ملكية

استبدادية ، وسارت الأقاليم المجاورة لفرنسا على نفس النظام فى الحكم الفرنسى . وكانت المانيا فىذلك الحين منقسمة الى مجموعة من الولايات الصغيرة وتمسكت كل واحدة منها بما راق لها من الحـــرف والعادات التى فضلتها . ومن ثم كان التاريخ الاقطاعى لألمانيا فى أواخر العصور الوسطى موضوعا معقدا ومثيرا للرعب .

التغيرات فى أساليب الحرب :

وعند تدهور الطبقة الاقطاعية الأرستقراطية أعطت تغيرات حربية مختلفة فى العصور الوسطى قوى دافعة ضافية . ومنذ العصر الكارولنجى the Carolingian age ، أصبح سلاح الفرســان هو الســلاح الأقوى والوحيد بالنسبة لأمراء أوربا لأنه كان متفوقا الى أبعد مدى على سلاح الرجالة infantry الذى كان من الممكن الحصول عليه بســهولة آنذاك . ومع ذلك فبانتهاء القرن الثالث عشر كانت الأحــوال مختلفة تماما . وفى ذلك الحين كان الحكام قادرين على تحمل نفقات القوات التابعة لهم واحتفظت تلك القوات بمســتوى جــديد من التدريب والانضباط ، وأثبتت قوات الرجالة foot-soldiers مالها من قيمة كبرى وبخاصة أنها كانت مدربة ومزودة بالمعدات الحربية . وظهــر بوضوح فى كثير من المعارك أن جماهير غفيرة من الرماحين pikemen استطاعوا بسهولة الصمود أمام هجمات الفرســـان ، ذلك لأن الذين يحملون الأقواس الطــويلة longbowmen . ، والذن يســتخدمون الأقواس والنشاب Cross bowmen ، استطاعت سهامهم اختراق الدروع العادية بسهولة ، وأمكن استخدامها بتأثير فعـــال فى الدفاع والهجوم . على أن تلك الدروس والعبر فى الحرب والصراع أوجدت فى نهاية الأمر نظاما حربيا جــديدا والذى لم يعــد فيه مكان للمحارب لاقطاعى برغم أنه لم يكن مفهــوما فهما كاملا فى ذلك الحين . وفى الحقيقة وجد الفارس حماية أفضل ضد الرماة بالســهام وذلك بتغطية جسده بالصفائح الحديدية والتى تجمعت فى النهاية لتكون بذلة كاملة . بيد أن مثل تلك البذلة بدورها تم استبدالها باستخدام الأسلحة النارية الصــغيرة .

ويبدو أن المدفع كان اختراعا أوربيا برغم ما قيل عن البارود . وتمت معرفة المدفع لأول مرة فى القرن الربع عشر الميـــلادى على أنه أنبوبة معدنية ثقيلة تنطلق منها بقوة كرة من الحجر بواســـطة شحنة متفجرة . على أن سلاحا من هذا النوع ، بعد أن أجريت عليـــه بعض التحسينات كانت له أهمية ضئيلة فى معارك القتال ، وبعد مرور مائة عام أخرى كانت البنادق لها أهمية فعالة . ومع ذلك ، حققت المدافع اهمية كبرى فى حالات ضرب الحصار حول المدن التحصينات . وبنهاية القرن الثالث عشر لم تعد القلعة برجا منعزلا محاطا بسور ، وانها صارت مبنا متكاملا مزودا بمنطقة محصنة مستديرة تسيطر على كل أجـــزاء المبنى ، وتنقسم الى وحدات يمكن الدفاع عنها على انفراد . وكان فى الامكان السيطرة على تلك القلاع باستخدام طـــريقة الموت البطىء ، حتى جاء القرن الخامس عشر حيث صارت الخنادق المائية ولمبانى عديمة الجدوى أمام سلاح المدفعية . ومنذ ذلك الحين صارت القلعة محلاقامة فخم أكثر من مجرد حصن حربى .

تفسخ نظام الفروسـية :

وكان من الواضح أن تلك التغيرت فى الأسلحة الحربية قد أثرت على المركز الاجتماعى للفارس . فقد ضاعت هيمنته الحربية علاوة على سيطرته السياسية التى كان من المتعذر تغييرها . ومع ذلك فان الطبقة الارستقراطية الاقطاعية ظلت تعبر باعتزاز وبك فخر واعتداد بالنفس عن تمسكها بتقاليدها الفروسية برغم تدهور سلطتها الواقعية . وعلى امتداد القرنين الرابع عشر والخامس عشر ازدادت باستمرار الرغبة فى اجراء مباريات الفرسان ، والأوسمة الخاصة بشعار النبالة ، وكل المنح والأجور الاضافية الأخرى ـ وهى التى انعكست فى الأدب الخيالى الكاذب فى ذلك العهد . وتنافس هؤلاء الملوك مع بعضهم البعض مثلما فعل كل من الملك الشرير فيليب السادس ملك فرنسا والملك ادوارد الثالث ملك انجلترا فى مواصلة مظاهر الأبهة باسراف واقامة تنظيمات الفرســان وخوض حروب لا طائل وارءها . وفى ١٥٢٠م استطاع كل من فرنسيس الأول Francis I ، وهنرى الثامن Henry VIII ابهار رعاياهما

من خلال المقارعات بالسيوف بين الفرسان اظهارا للبراعة والشجاعة أو طمعا فى جائزة jousts . وفى ذلك الحين أصبحت النظم الفروسية الخالصة موضوعا عتيقا مثل القلاع ، ولم تعد البذلة الحربية لمكسوة بصفائح معدنية للوقاية والتزامات الفارس ، والضيعة الاقطاعية التقليدية سوى مجرد ذكرى فى الأقاليم المتقدمة فى غرب أوربا .

آثار النظام الاقطاعى :

منذ البداية عمل نمو الروح التجارية بين السكان فى المدن على زيادة الطلب على الطعام والمواد الخام . ونظرا لأن هذا الطلب قد أدى الى التحسن السريع فى الوسائل المساعدة على البيع والشراء وتوزيع الانتاج أصبحت الزراعية عملا مربحا . ومن ثم تم اقامة القرى الجديدة عن طريق تقديم العروض المغرية للمستوطنين الجدد بها ، ويرجع نجاح تلك العمليات الى دفع الكثيرين من ملاك الأراضى الى اعادة تنظيم قراهم القديمة عن طريق تحويل كلالتزامات المزارعين الى أجور نقدية . وكانت نتيجة ما تقدم هو اختفاء النظام الادارى الاقطاعى القديم فى الميلادى بالاضافة الى نظام القنية المرتبط به . وعند بداية ذلك النظام كل أنحاء انجلترا ومعظم الاقاليم الفرنسية بنهاية القرن السادس عشر كان استخدام المبالغ الضخمة من المزارعين بدلا من الالتزامات الشخصية الاقطاعية من الممكن أن يتم لصالح طبقة ملاك الأراضى . ولم يكن فى مقدرة أحد فى ذلك الحين التقع بأن تحديد مبالغ الايجار سوف يفقد معظم قيمته نظرا لتزايد انتاج الذهب والفضة عمل على انخفاض القوة الشرائية لتلك المعادن . وعانت طبقة النبلاء فى فرنسا التابعة للنظام القديم the Old Régime من النتائج المفجعة . وكان على الملك لويس الرابع عشر ، ذلك الارستقراطى الأرعن ، أن يختار بين حالة الفقر المدقع والعبودية المتخلفة أمام سخاء الملك وبخاصة أن كان محروما من الأعمال التجارية . على أية حال كانت نهاية مؤسسة النظام الاقطاعى عندما لغت الجمعية العامة the National Assembly النظام الاقطاعى ١٧٨٨م .

الفهـــــرس